

عن الفساحي

البائع
في

تاريخ الأدب العربي

الأدب الحديث

دار الجيّد
بيروت

الباب الأول بيئة النهضة الحديثة

- ١ - انهيار وتوقُّب : في عهد الأعاجم والأفراك صدف الناس عن العلم وليث الشرق يترقّب يوم انبعائه . وكان ذلك عندما احتلَّ الشرق بالغرب وانفتح على المدنيّات الحديثة .
- ٢ - إتصال حيّز : اتصل لبنان بالغرب منذ فخر الدين ، ولشأت حركة البعثات الأوربيّة الى الشرق ، وأنشئت للبنانيين وغيرهم من أبناء الشرق مدارس في رومة وباريس كانت في أصل حركة الاستشراق .
- ٣ - بعثات ومدارس وطباعة : اشتدّت حركة النهضة في لبنان بتتابع الوفود الى أوربة ، وبإنشاء المدارس ، ومعالجة الطباعة . وأول مطبعة دخلت البلاد العربيّة هي مطبعة دير قزحياً سنة ١٦١٠ .
- ٤ - حملة نابوليون ونهضة مصر : دخل نابوليون مصر سنة ١٧٩٨ ، وأنشأ الفرنسيّون فيها مدرستين ومجمعاً علمياً ومكتبة وصحيفتين ، فاحتكّ المصريّون بالحضارة الأوربيّة ، وراح محمد علي يوالي البعثات إلى أوربة ويشجّع حركة النقل والترجمة .
- ٥ - بعثات مصريّة ومدارس ومطابع : عندما توكّى اسماعيل أمر مصر اشتدّت حركة البعثات ، وتعدّدت المدارس والمطابع ، فأنشئت الصّحف والمجلّات ، وانطلقت حركة التصنيف وإحياء المخطوطات بالطباعة .
- ٦ - صحافة وجمعيات ومكتبات : انطلقت حركة الصحافة من مصر أولاً ثم انتشرت في شتى أنحاء العالم العربي ، وانطلقت كذلك الجمعيات العلميّة والأدبيّة كالجمعية السوريّة ، والمجمع العلمي الشرقي ... وأنشئت المكتبات الكبرى كالمكتبة الظاهريّة بدمشق ، والمكتبة الشرقيّة ببيروت ..
- ٨ - نقل وترجمة : ونشطت حركة النقل والترجمة فنقل التراث العالمي الى اللغة العربيّة ونقل بعض آثار العرب إلى اللغات الأوربيّة ، فكان لذلك أثر شديد في تسريع حركة التطوّر الفكري والأدبي والفنّي .

١ - انهيار وتوقُّب :

المدنيّات عند الشعوب أخذ وعطاء ، أخذ ينمّي وعطاء يُحيي الموات أو يزيد في الكميّات والكيفيّات . وطالما كان الشرق متبعاً للعطاء ومبعثاً للخير والضياء ، بل كان منذ

أقدم عصوره منبت الحضارات ، ترعرع في كنفه الفكر الإنساني ، وتقلبت على جوانبه الشعوب تقصده من كل مكان غزاة فكر وغزاة بيان ، ثم قلب له الدهر ظهر المجن ، عندما انطوت صفحة العهد العباسي . واندفعت على البلاد العربية سيول من الأعاجم والأتراك وغيرهم من الشعوب التي لم تُقم للمدنيّات وزناً ، ولم تعرف لها قيمة ، فدكّت أركان البناء القائم ، وعفّت على آثار الصروح الشاهقة ، ونشرت القلق والاضطراب ، وبعثت الفتن وروح الفوضى ، فصدف الناس عن العلم والجهد العلمي ، وصدف

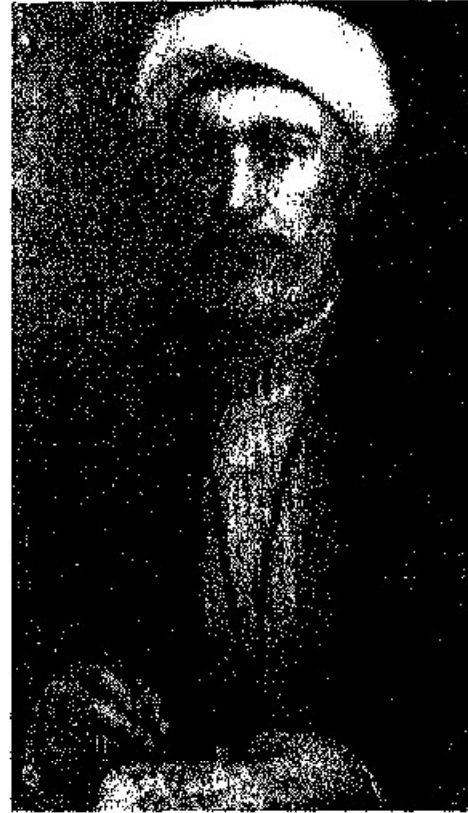
EMIR FACHR-EDDIN, PRINCE DES DRAVS.



الأمير فخر الدين المعني الثاني .



يوسف السمعي (١٨٦٨ — ١٩٣٠)
أمين مكتبة القاتيكان.



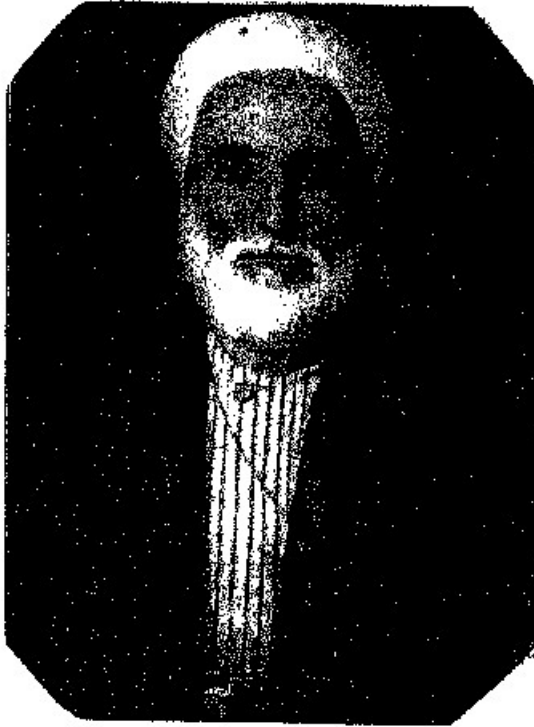
الشيخ ابراهيم الأحباب.

الناس عن الفنّ والتطلّع الى سمائه ، وراحوا يتقنون ضربات الأيام ، ونواب الحداث ، ويشون ما في نفوسهم في أدب عامّي أو ما يقترب من العامّي ؛ وهكذا خبتْ جذوة العبقريّات ، وخمدت نيران القلوب ، وراح الشرق في ظلمته الكالحة ، وفي فقره الفنيّ ، يترقّب يوماً يبعث فيه حيّاً ، وإذا بذلك اليوم يقترب ، وإذا هنالك بقطة عامّة تعقبها نهضة مباركة .

اندلعت الشرارة الأولى في الشرق عندما احتكّ بالغرب ، فكانت شرارة اليقظة التي بدأت بطيئة ، والتي اتسعت شيئاً فشيئاً لتأخذ مداها الأرحب وتحقق النهضة الحقيقيّة ؛ وإذا كان لبنان ، بسبب موقعه الجغرافي ، أكثر انفتاحاً على الغرب ، كان بسبب ذلك سباقاً في التفاعل والحضارة الجديدة ، والسّير في سبيل الخروج الى عالم النور والرفق .

٢ - إتصال خير:

اتصل لبنان بالغرب في عهد فخر الدين (١٥٧٢ - ١٦٣٥ م)، وجرّت منذ ذلك الحين حركة البعثات الأوروبية إلى الشرق بواسطة الإرساليات، وتأسست في روما وباريس وغيرهما من كُتُريّات المدن الأوروبية مدارس لتعليم أبناء الشرقيين ولا سيما اللبنانيين منهم، وقد تخرّج من تلك المدارس طُغمة مباركة من أرباب العلم والثقافة^(١) الذين لمعوا في سماء المعرفة وكان لأقوالهم وكتاباتهم أصداء عالمية، وكان من أبحاثهم في آثار الشرقيين حافز لعلماء الغرب حفّزهم على دراسة أدب الشرق ونتاج عقله، وكان من ذلك حركة الاستشراق التي لها فضل جم على النهضة الحديثة والتي وجّهت الباحثين شطر الدراسات العلمية والأخذ بأساليب البحث العلمي وتصحيح النظريات القديمة في التاريخ والنقد والعلوم.



الشيخ يوسف الأسير.

٣ - بعثات ومدارس وطباعة:

وراحت تلك الحركة في لبنان تتضمّن بين أخذ وردّ، ولاسيما عندما تأسست الرهبانيّات الوطنية وأخذت على عاتقها أن تنير الشعب وتثقفه، وانجهدت لأجل ذلك اتجاهاً ثقافياً، وراحت ترسل الوفود إلى العواصم الأوروبية ليرجعوا إلى بلادهم ببضاعة علمية وافرة، وراحت تؤسّس المدارس في الأنحاء اللبنانية، ومن أقدم تلك المدارس وأهمها مدرسة

١ - نذكر منهم إبراهيم الخافلاتي (١٦٦٤) والمطران جرمانوس فرحات (١٦٧٠ - ١٧٣٢) والأب بطرس مبارك (١٦٦٠ - ١٧٤٧) وخصوصاً يوسف سمعان السمعاني (١٦٨٧ - ١٧٦٨) منظم المخطوطات الشرقية في كلية الفاتيكان، و مترجم الكثير من الآثار الشرقية الى اللغات الأدبية.

عينطورة (١٧٣٤) ومدرسة عين ورقة (١٧٨٩). وقد عمل الرهبان ، فضلاً عن تخريج أساتذة للجيل الجديد ، على إنشاء المطبعة العربية ، وكانت الطباعة العربية قد ظهرت ، أول ما ظهرت ، سنة ١٥١٤ في فانو من أعمال إيطاليا ، وأول مطبعة دخلت البلاد العربية هي مطبعة دير قزحيا ببلنات سنة ١٦١٠ ، وقد طبعت فيها الكتب العربية بحرف كرشوني . وأول مطبعة عربية عرفها الشرق هي مطبعة حلب التي أنشأها البطريرك أثناسيوس الرابع الدباس سنة ١٧٠٢ ، وسك أمهات حروفها الشماس عبد الله الزاخر . ثم ظهرت بعد ذلك مطبعة دير الشوير ببلنات بفضل الشماس عبد الله الزاخر ، وشرعت في العمل المنظم سنة ١٧٣٤ . وهكذا وُضعت الأسس البعيدة للنهضة الحديثة .

٤ - حملة نابوليون ونهضة مصر :

ولما كانت سنة ١٧٩٨ زحفت جيوش نابوليون بوناپرت على مصر ، وفيها الأديب والشاعر والطبيب والفيلسوف ، ورجل الصناعة والفن والاختراع ، فاحتكت مصر بالأوروبيين عن كثب ، وقد أنشأ الفرنسيون في مصر مدرستين ومجمعاً علمياً ومكتبة قيمة وصحيفتين ناطقتين بلسان الحملة والمجمع العلمي ، وعُنت هذه المنشآت بنش التراث الفرعوني وتعزيز العلوم والفنون وتنمية روح البحث والتنقيب في شتى الميادين ، وعندما جلس محمد علي على عرش مصر سنة ١٨٠٥ واصل مسيرة الإصلاح والنهوض ، وقد أراد الإحتكاك بالغرب شديداً مشمراً ، فوالى البعثات إلى أوربة ، وعمل على فتح المدارس ولاسيما الطيبة والعسكرية منها ، وشجع حركة النقل والترجمة والطباعة والصحافة ، واتخذ اللغة العربية لغة رسمية للبلاد ، فكان رجلاً عظيماً وركناً رئيسياً من أركان النهضة . ويعتبر عهد محمد علي عهد النهضة العلمية والعسكرية في مصر بينما سعى اسماعيل بعده ، إلى تعزيز النهضة الأدبية .

٥ - بعثات مصرية ومدارس ومطابع :

كانت سنة ١٧٩٨ تاريخ الانطلاق الشديد في عالم التقدم والوعي القومي ونشأ في مصر صراع بين العقل القديم والعقل الجديد ، فكان من ذلك مجريان في العلم والأدب



والفنّ بتفاعلات فيدعمان النهضة. وقد ازداد احتكاك الشرق بالغرب في الكيِّة والكيفيَّة ، واشتدَّت حركة البعثات ؛ ولَمَّا تولَّى إسماعيل زمام الأمور في مصر تعدَّدت المدارس ثلَّة والمطابع وسائر أسباب النهضة ، وتقاطر الأجانب إلى البلاد ، ووافق ذلك

١ - كان العلم والتعليم في مصر ، قبل محمد علي ، محصورين في الأزهر وبعض الكتاتيب في المدن والأرياف . والأزهر في الأصل جامع للعبادة بناه القائد جوهر فانيح مصر سنة ٩٧١ ، ثم تحوَّل بعد ذلك إلى جامعة لتدريس العلوم الدينيَّة على مذهب الشيعة ، وبعض العلوم اللغوية والعقلية . وبعد أن تغلَّب صلاح الدين على الفاطميين جعله مدرسة سنَّة يؤمُّها الطلَّاب من كلِّ الأقطار الإسلاميَّة . وأثر الانحطاط الثقافي في التعليم في الأزهر فاقصر على العلوم الدينيَّة وبعض أصول الحساب القديمة البدائيَّة . وفي نهاية القرن التاسع عشر ، سعى عقلاء المسلمين إلى إصلاح حالة الأزهر وادخال العلوم الطبيعيَّة والرياضية فيه . وانبرى الشيخ محمد عبده ، بما عُرف عنه من تحرُّر وتوق إلى التجديد . انبرى يضطلع بهذه المهمة ، محاولاً جعل التدريس في الأزهر يلبي حاجة الأمة إلى النهوض والوعي . وكان له ما أراد رغم المقاومة العنيفة ، وأصبح الأزهر في مطلع القرن العشرين يحاري بناهجه مناهج التعليم الراقية والحركة التقدمية العلميَّة .

كان الأزهر في عهود الانحطاط ملجأ اللغة العربية ومقرها الحصين . فمن رجاله انتفى محمد علي رجال النهضة ، ومن تلامذته كانت البعثات إلى أوربَّة .

في عهد محمد علي نشأت عدَّة مدارس تساعد على تنظيم الجيش الحديث ، من ذلك مدرسة الطب التي أُسِّست سنة ١٨٢٦ والتي كان الفضل الأكبر في إنشائها للدكتور كلوب بك طبيب جيش محمد علي .

ولا زدهار المدرسيّ الفعلي كان في عهد إسماعيل فأنشئت مدرسة الحقوق ومدرسة المعلمين ، ومدرسة الفنون والصناعات ثم الجامعة المصرية سنة ١٩٠٦ .

اضطهاد العثمانيين للبنانيين والسوريين ، فكثر المهاجرون منهم إلى الديار المصرية حيث وجدوا ميداناً واسعاً للعمل ، وحيث كانوا من أركان النهضة ، فأنشأوا الصحف والمجلات الراقية . وفي تلك الأثناء تسرّبت أسباب النهضة إلى سائر البلاد العربية ، وانطلقت حركة التصنيف وإنشاء الكتب وإحياء المخطوطات بالطباعة ، وأنشئت الجامعات الكبرى : في بيروت الجامعة الأميركية سنة ١٨٦٦ ، وجامعة القديس يوسف سنة ١٨٧٤ ، وفي مصر الجامعة المصرية سنة ١٩٠٦ ، وفي دمشق الجامعة السورية في عهد فيصل بعد الحرب الكونية الأولى .



محمد علي باشا .



الحديري

اسماعيل

باشا.

٦ - صحافة وجمعيات ومكتبات :

وانطلقت حركة الصحافة فكانت مدرسة سيارة للتثقيف والتوجيه ، وكانت مصر مهدها ومنطلقها ، وقد أنشأ محمد علي سنة ١٨٢٨ الوقائع المصرية ، وأنشأ رزق الله حسون الحلبي في القسطنطينية سنة ١٨٥٥ جريدة أسبوعية أسماها «مرآة الأحوال» . ولكن الصحافة الحقيقية بمعناها الدقيق لم تقم إلا على أيدي اللبنانيين وقد أنشأ اسكندر شلهوب جريدة «السلطنة» سنة ١٨٥٧ ، و خليل الخوري «حديقة الأخبار» سنة ١٨٥٨ ، وبطرس البستاني «نفيروز سوريا» سنة ١٨٦٠ . وأحمد فارس الشدياق جريدة «الجوائب» في اسطنبول سنة ١٨٩٠ ، وسليم البستاني جريدتي «الجنة» و«الجنة» ، وأنشأ سليم وبشارة تقلا اللبنانيان جريدة «الأهرام» في الإسكندرية سنة ١٨٧٥ ،

Arabic.

بسم الله الرحمن الرحيم
نحمدك يا ذا الجلال والإكرام
توفيقه بنسخ ما لم يرد

السفر الأول المزمور الأول

وبني الرجل

الذي
لم يتبع
رأيه



المنافقين
ولم يلق في فكره الخاكين
ولم يجالس
المستهزئين لكن فينا موسى
الرب مشيت

وفي سنده سبلو
ليلا ونهارا فيكون
كمثل الشجرة المفروسة
على مجاري المياه التي
تغطي ثمرتها في حينه
وورقها لا يمتثر
وكل ما يعمل

يتم ليس كذلك
المنافقون ليس كذلك
بل كالهباء الخفيف تدرسه
الرياح من وجه الأرض
فلا تبقوا لا تقوم
المنافقون في القضاء
ولا الحكام في مجمع
الصادقين لأن الرب
حارث بطريق الأبرار
وكريف الأثمة تدينه



عبدالله زاهر بريشته.



من إنجازات مطبعة دير الشوير — عبدالله زاهر.



سلم تولا.



نعوم مكرزل.



بشارة تولا.

وفارس نمر ويعقوب صروف اللبنايان جريدة «المقطم» بمصر سنة ١٨٨٩. وهكذا ضجت البلاد العربية كلها بالصحافة.

ولقد لعبت الصحافة دوراً بالغ الأهمية في التوعية القومية والثورة على الظلم والاستبداد والحث على التمرد والنهوض، كما نقلت آثار الغرب ونتاج عبقريته، ووسعت أساليب الكتابة والإنشاء وبسطت اللغة وخلصتها من التعقيد والرتابة.

وإلى جانب الصحف السيّارة عرفت البلاد شيئاً فشيئاً نهضة في انشاء المجلات العربية فظهرت «اليعسوب»، و«الجنان» و«المقتطف» و«الطيب» و«الهلال» و«الضياء»، وغيرها ممّا كان له انتشار وفائدة. وانطلقت إلى جنب الصحافة الجمعيات العلمية والأدبية وساعدت على نشر العلوم والثقافة وشجعت المشتغلين بها، ومن أشهرها «الجمعية السورية» ببيروت سنة ١٨٤٧، و«المجمع العلمي الشرفي» ببيروت سنة ١٨٨٢، و«المجمع العلمي العربي» بدمشق، وأخيراً «مجمع اللغة العربية» في القاهرة سنة ١٩٣٢. وكان الهدف من هذه الجمعيات والمجامع احياء الآداب العربية والمحافظة على اللغة العربية وتطويرها لتسير مع حاجات العصر والحياة الجديدة. وإلى جنب ذلك كلّه أنشئت المكتبات على نظام حديث، ومن أشهرها المكتبة الظاهرية بدمشق سنة ١٨٧٨، ودار الكتب بمصر في عهد محمد علي، والمكتبة الأزهرية بمصر سنة ١٨٧٩، والمكتبة الشرقية ببيروت سنة ١٨٨٠، ومكتبة جامعة بيروت الأميركية. وكانت الجمعيات والأندية الأدبية والمكتبات من أهم عوامل التقدم إذ فتحت أمام الباحثين والأدباء أبواب الحوار والنقاش والاطلاع، ووفّرت لهم وسائل العمل العلمي الصحيح.

كل ذلك جند للنهضة رجال علم وعمل، ووفّر أساليب البحث والتحري، ونشر الآداب والفنون الغربية، ووجه الوعي القومي شطر التحرر وتحطيم نير التقاليد في التفكير والأساليب، وسنرى أثر ذلك كلّه في الأدب الذي نحن بصددده.

٧ - نقل وترجمة :

نشطت في عهد النهضة حركة النقل والترجمة، فاهتمّ العلماء والأدباء لنقل التراث العالمي إلى اللغة العربية، كما اهتموا لنقل بعض الآثار العربية إلى اللغات العالمية. وكان

لهذه الحركة أشد الأثر على توسيع الآفاق أمام كتاب العرب ، وعلى إطلاع العالم على ما للعرب من تراث فكري وأدبي . ومن رواد هذه الحركة القسّ جبرائيل الصهيو في الذي نقل إلى اللاتينية كتاب « نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والآفاق » للمسعودي ؛ وإبراهيم الحاقلا في الذي درّس العربية في جامعة فرنسة ، ودعاه الكردينال الشهير ريشليو « توجمان البلاط » لأنه ترجم له عدداً من الكتب العربية ؛ ويوسف سمعان السمعاني الذي أقيم مترجماً للكتب العربية التي في مكتبة الفاتيكان .

أما حركة التعريب ونقل الكتب الأجنبية إلى اللغة العربية فقد انتشرت في لبنان كما انتشرت في مصر ، وقد شجّعها محمد علي ، فترجمت في عهده الكتب العلمية والإصلاحية . وعندما نشأت حركة المسرح العربي وبُنيت ، في عهد اسماعيل ، دار الأوبرا الخديوية راح الأدباء ينقلون المسرحيات العالمية ، فعرب أديب اسحاق رواية « اندرومالك » لراسين ، كما عرب غيرها ، وعرب الشيخ نجيب الحداد عدة مسرحيات فرنسية .

واهتمّ الأدباء أيضاً لتعريب القصص والروايات ، فنقل أسعد داغر « بعد العاصفة » لهنري بوردو ، ونقل أديب اسحاق « الباريزية » الحسناء للكونتس داش ، ونقل طانيوس عبده « الفرسان الثلاثة » لاسكندر دوماس .

واشتدّت حركة الترجمة والتعريب بعد الحرب العالمية الثانية حتى حفلت مكتبتنا العربية بأشهر الكتب العالمية في العلم والفلسفة والتاريخ والاقتصاد والأدب ... وكان لهذه المشاركة الفكرية أعمق الأثر في توجيه العقل العربيّ شطر الإنتاج الفكري والأدبي الذي جعلنا ، في مدة قصيرة ، نجاري الحركة العالمية في ميداني العلم والأدب .

مصادر ومراجع

- أنيس زكرويا النصولي : أسباب النهضة العربية — بيروت ١٩٢٦ .
 عباس محمود العقاد : شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي — القاهرة ١٩٣٧ .
 عمر الدسوقي : في الأدب الحديث — القاهرة ١٩٤٧ .
 أحمد أمين : قصة الأدب في العالم — القاهرة ١٩٤٨ .
 الأب لويس شيخو : الآداب العربية في القرن التاسع عشر — بيروت ١٩٠٨ .
 أنيس المقدسي : العوامل الفعالة في الأدب العربي الحديث — القاهرة ١٩٣٣ .
 الفيكونت فيليب دي طرازي : تاريخ الصحافة العربية — بيروت ١٩١٣ .
 عبد الرحمن صدقي : المسرح العربي — مجلة الكتاب — يناير ١٩٥١ .
 نجيب عقيقي : المستشرقون — القاهرة ١٩٤٧ .
 محمد أمين حسونة : التأثير الفكري للحملة الفرنسية على مصر — مجلة الكتاب ٦ : ٣١٩ — ٣٢٥ .
 قسطنطين عطارة : تاريخ تكوين الصحف المصرية — الاسكندرية ١٩٢٨ .



من محفورات عبدالله زاخر على الخشب .

الباب الثاني نثر النهضة الحديثة

الفصل الأول نظرة عامة

١ - وصل الحركة الجديدة بالأدب العباسي : بدأت الحركة النثرية الجديدة بمعالجة اللغة والأساليب الكتابية ، والرجوع الى الأصالة العباسية .

٢ - مدارس النثر الحديث :

١ - مدرسة المحافظة الجامدة : همها بحث اللغة والمحافظة على الأسلوب القديم . خطوتها خطوة تقليد ، ومعها تنقلب فكرة التركيب على الأدب . من أركانها ناصيف اليازجي .

٢ - مدرسة التجديد : بدأت مع أحمد فارس الشدياق ، وقوامها معاني جديدة ، وأسلوب سهل يجري مع الطبع .

ثم انزلت هذه المدرسة في التطرف والخروج التام عن أساليب العرب ، وراحت تقلد الغرب وتأخذ بأساليبه .

٣ - مدرسة الاعتدال : جمعت بين القديم والحديث في أسلوب صحيح وتفكير قويم . من أركانها محمد عبده وإبراهيم اليازجي .

١ - وصل الحركة الجديدة بالأدب العباسي :

خرج النثر من عهد الانحطاط واهي القوى ، مفكك العرى ، يدور في حلقة ضيقة من اللاشيء المعنوي والفني ، ويزدهي بأنه رافل في أردية فضفاضة من الزخرفة والألاعيب اللفظية التي لجأ إليها الكتّاب يسترون بها الضعف والجمود . وقد تكاثرت الزجل ، وعمّ اللحن ، فراح عمال النهضة يعالجون اللغة والأساليب الكتابية ، يريدون إرجاعها إلى سابق صفائها ، وراحوا يعالجون الكتب الدراسية ، والصحافة ، وكل ما

من شأنه أن يرتقي بالجيل الجديد. وراحوا يكتبون المقامات على مذهب الحريري، ويُنشئون الرسائل على مذهب الصّابي وابن العميد، وراحوا بعد ذلك يعالجون موضوعات النقد والتّاريخ والعلم والاجتماع وما إلى ذلك.

٢ - مدارس النثر الحديث :

وإنّ من استقرّاً حركة النثر في العهد الحديث وجد ثلاث مدارس : مدرسة المحافظة الجامدة ، ومدرسة التجديد والتّجديد المتطّرف ، ومدرسة الاعتدال . أما المدرسة الأولى ، ورافع لوائها الشيخ ناصيف اليازجي ، فكان همّها بعث اللغة والحفاظ على الأسلوب القديم ؛ وقد ناصرها الكثيرون ولا سيّما علماء اللغة ومَن يهتمهم الحرف قبل الروح ، والظّاهر قبل الباطن ، فكانت خطوتهم خطوة تقليد ، تنوَّكاً على الأساليب العباسيّة ، وتعتشّق الصّياغة والصّنع ، وتتغلّب فيها فكرة التركيب على الأدب .

وأما مدرسة التجديد فقد بدأت مع أحمد فارس الشدياق بعد أن ضرب في الآفاق ، وتحوّل في البلاد الأوروبيّة وغيرها ، وراح يكتب متوخّياً المعاني الجديدة ، والأسلوب السهل الذي يجري مع الطبع ؛ وراح يعالج الصحافة بأسلوب حديث وتتبع وتحرّ للذّقة والحقيقة . وقد تبعه في مدرسته محرّرو الصحف من مثل خليل الخوري صاحب « حديقة الأخبار » وسليم البستاني صاحب « الجنان » ، وأديب إسحق ، وأصحاب المقتطف والهلل ، والمترجمون الذين نقلوا آثار الغربيين أو اقتبسوا منهم الأساليب ، وعملوا في ميدان المسرح والقصة كنجيب الحداد ، وسليم النقاش ، وفرح انطون ؛ إلّا أن تلك المدرسة التجديديّة ما عتّمت أن أخذت بمذهب التطّرف والخروج التامّ على أساليب العرب ، وذلك لإغراق أصحابها في الأخذ بأساليب الغرب ، ولا سيما المهاجرون منهم الذين عاشوا في غير بلادهم ، ونشأوا على تطلّب المعاني والأساليب الغربيّة ، وكان زعيمهم جبران خليل جبران . وقد نزعّت مدرسة التجديد نزعة التحرّر من كلّ قيد ، وراح كتّابها يعتمدون لوناً طريفاً في ترتيب الكلام وتبويبه ، ويقصرون كتابتهم على المعاني ودقّتها ، وعلى الأساليب الفنيّة العالميّة ، لا يتوخّون التعبير إلّا بعبارة سهلة ، خالية من الزينة والسجع وأنواع البديع ، تجري مع الطبع ومع مقتضيات كلّ فنّ وكلّ حال ؛ ودخلت اللغة صيغ جديدة وطُرُق جديدة لأداء معاني

جديدة ؛ وهكذا تغلب الطبع على التطبع ، والفن على التفنن ، والجمال على التجميل والتصنيع ؛ ولولا التطرف في هذا التيار التجديدي ، ولولا الضعف في صياغة التعبير عند أصحابه ، لكانت نتيجته أشهى ثماراً وأنضر أزهاراً.

وأما مدرسة الاعتدال فن أركانها الشيخ محمد عبده والشيخ ابراهيم اليازجي وقد جمعا بين القديم والحديث . وكانت خطوتها مركزة في أسلوب صحيح وتفكير قويم ، في أسلوب يدور على قطب الفكرة ، وبواكب الفكرة ليعبّر عنها ويكون في خدمتها . والفكرة مستمدة من علم حديث ، وعقل مطّلع ، وثقافة واسعة النطاق .

نزعات النثر الحديث :

نزع النثر في هذا العهد نزعات مختلفة منها النزعة الأدبية في الترسل والقصص والأبحاث مع الشيخين ناصيف اليازجي وابنه ابراهيم ، ومع أحمد فارس الشدياق وجرجي زيدان وسليمان البستاني وأضرابهم ؛ ومنها النزعة الاجتماعية في إصلاح مفاصل المجتمع ، وتحرير المرأة ، وتعليم الأحداث ، مع قاسم أمين وجبران خليل جبران ، ومصطفى المنفلوطي ، وولي الدين يكن وغيرهم ؛ ومنها النزعة السياسية في تحرير البلاد ومعالجة القضايا الوطنية مع أمثال مصطفى كامل وسعد زغلول ؛ ومنها النزعة العلمية مع يعقوب صروف ومن حدا حدوه .

مصادر ومراجع

شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي — القاهرة ١٩٤٦ .

عمر الدسوقي : في الأدب الحديث — القاهرة ١٩٤٨ .

أحمد أمين : قصة الأدب في العالم ٣ — القاهرة ١٩٤٥ .

الفصل الثاني

القصة

أ - شيوخ القصة في مطلع النهضة : شاعت في هذا العهد القصة الطويلة والقصة القصيرة ، وقد ساعد على ظهورهما وانتشارهما بأسلوبها الجديد احتكاك الشرق بالغرب ، واهتمام الصحف والمجلات لهذا النوع من الأدب ، ولاسيما وإن الترجمة غذت تلك الصحف والمجلات بروائع الغرب وآثاره القصصية والمتطورة .

ب - أطوار القصة في العهد الحديث : كان الطور الأول من أطوار القصة الحديثة طور ترجمة واقتباس ومحاولة تحرر من قالب العربي القديم ، وكان الطور الثاني طور انتهاز للنهج الغربي الحديث ، ومحاولة التمشي على قوانين الفن الصحيح .

ج - نزعات القصة الحديثة : نزع عبء نزعات وكثيراً ما اختلطت تلك النزعات والأهداف . في مطلع النهضة أجهت القصة اتجاهاً تاريخياً اجتماعياً وهدفها التثقيف والإصلاح ومحاربة انقاسد . فكانت ضعيفة الفن كثيرة الفائدة . من ذلك روايات جرجي زيدان وسليم البستاني وفرح أنطون . وكانت بداية القصة التاريخية الرومانسية مع نجيب محفوظ . وظهرت في ذلك العهد أيضاً روايات اجتماعية خالصة ولكنها كانت ضعيفة الفن أيضاً وتقوم على الصدقة والمبالغة .

د - نضوج الفن القصصي وأشهر أربابه : تطور الفن القصصي على يد أخصائيين موهوبين كمحمود تيمور ، ونجيب محفوظ . وعبد الحميد السحر ، وقد استمدوا موضوعاتهم من واقع الحياة الحالية في الشرق وجمعوا في سردهم ما بين الفائدة والمتعة ، بخلاف أولئك الذين عُنوا بحال العبارة ورشاقة الأسلوب أكثر مما عُنوا بالعمل القصصي .

هـ - الأقصوصة المعاصرة : كان لها شأن كبير وكان من أربابها إبراهيم المازني ، ومحمود تيمور ، ومارون عبود .

أ - شيوخ القصة في مطلع النهضة :

شاعت القصة الطويلة أو الرواية في هذا العهد كما شاعت الأقاصيص وكان لا اتصال الشرق بالغرب يدٌ قويّة في بعث هذا اللون من الفن الأدبي ، وقد حرّر ذلك الاتصال

شعور الشرقيين وعقليتهم وطور شخصياتهم في عالمي الفكر والاجتماع ، وأخذ يُؤثّر ثماره في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وكان للصحف والمجلات كما كان للطباعة فضلٌ جَمٌّ في نشر القصص الغربي ونشر المحاولات الشرقية الأولى. وهناك مجلّات أفردت للقصة باباً خاصاً كالجنان لبطرس البستاني (١٨٧٠)، وقد نشر فيها سليم البستاني كلّ قصصه وأقاصيصه ، والمقتطف التي ترجمت الروايات ووزعت إحداهما وهي «قلب الأسد» على المشتركين الذين سددوا بدل اشتراكهم في يناير (كانون الثاني) سنة ١٨٨٧ ، والهلّال وقد اشتهرت بسلسلتها التاريخية لرجي زيدان. وهناك مجلّات كادت تنحصر بمجملها في الفن القصصي منها «سلسلة الفكاهات» لنخلة قلفاط (بيروت ١٨٨٤)، و«ديوان الفكاهة» لسليم شحادة وسليم طراد (بيروت ١٨٨٥) وكان يترجم قصصها شاكر شقير ، و«منتخبات الروايات» لاسكندر كركور (القاهرة ١٨٩٤) و«سلسلة الروايات» لمحمد خضر وبشير الحلبي (القاهرة ١٨٩٩ ثم ١٩٠٩). و«مسامرات النديم» لإبراهيم رمزي وعزت حلمي (القاهرة ١٩٠٣)، و«الراوي» لطانيوس عبده (بيروت ١٩٠٩ ثم ١٩١٠)...

وهكذا ساعدت الصحافة على نشر القصة في العالم العربي وكانت الترجمة تساعد على أداء رسالتها هذه. وقد تُرجم في هذه الفترة عدد كبير من الروايات والأقاصيص من مثل «بعد العاصفة» لهنري بوردو نقلها إلى العربية أسعد داغر (القاهرة)، و«الباريزية الحسناء» للكونتس داش ترجمها أديب إسحق (بيروت ١٨٨٤)، و«الفرسان الثلاثة» لاسكندر دوماس الأب، ترجمها نجيب الحداد (القاهرة ١٨٨٨)، و«روكمبول» لبونسون دي تيراي ترجمها طانيوس عبده (القاهرة ١٩٠٦ — خمسة أجزاء).

إلا أن أكثر هذه القصص المترجمة حافل باللغة الهزيلة والركاكة ، حافل بالتحريف والمسخ. ومهما يكن من أمر فلاولئك المترجمين فضل كبير على نهضة القصة الحديثة في العالم العربي.

٢ - أطوار القصة في العهد الحديث :

كان الطور الأول من أطوار القصة الحديثة طور ترجمة واقتباس ومحاولة تحرّر من

القالب العربي القديم، ومما يمثل مطلع هذا العهد «حديث عيسى بن هشام» للمويلحي (١٨٥٨ — ١٩٣٠)، و«ليالي سطيح» لحافظ إبراهيم، و«ليالي الروح الحائر» لمحمد لطفي جمعة. والأسلوب فيها أسلوب المقامات مع جدّة في عرض الحوادث ورسم الصور والكشف عن الشخصيات المصرية، وتأثير ظاهر بالثقافة الغربية. وكان اللبناييون قد سبقوا المصريين في هذا المضمار فوضع سليم البستاني (١٨٤٨ — ١٨٨٤) عدّة روايات، ووضع غيره روايات أخرى وقد كانت أكثر تحرراً من الأسلوب العربي القديم وأشدّ تأثراً بالثقافة الغربية.

وكان الطور الثاني من أطوار القصة طور انتهاز للنهج الغربي الحديث، ومما يمثل مطلع هذا الطور رواية «زينب» لمحمد حسين هيكل (١٨٨٨ — ١٩٥٧) وهي من الآثار الأولى التي توافرت لها عناصر القصة الفنية. وراحت القصة في تطورها السريع تخطو خطى واسعة وتحاول التمشي على قوانين الفن الصحيح إلا أنها لم تبلغ بعد المستوى الرفيع الذي تسعى إليه، ولم يراع فيها القاص ما هنالك من فرق بين الأقصوصة التي هي صفحة من حياة، والرواية التي هي في الأغلب موضوع كامل لحياة أو حيوات تامة، وقد غلب فيها السرد على التحليل ورسم الشخصيات.

٤ — نزعات القصة الحديثة :

نزعت القصة الحديثة عدة نزعات منها التاريخية ومنها الاجتماعية وكثيراً ما تمازجت تلك النزعات واختلطت الأهداف. أما في مطلع النهضة فقد اتجهت القصة اتجاهًا تاريخيًا اجتماعيًا ولا سيما وإن ظلم العثمانيين قد اشتدّ وطأ سيل الاستبداد «تخفق الحريات، وجرت في البلاد موجة تراخ في الأخلاق كانت رفيقة الحضارة الجديدة : فراحت القصة تنطق التاريخ بنماذج البطولات، وتحارب المفاسد، وراح أمثال سليم البستاني وجرجي زيدان وفرح أنطون وغيرهم يخطّون القصص، وإذا لسليم البستاني «زنوبيا» (١٨٧١)، و«بدور» (١٨٧٢)، و«الهيام في ربوع الشام» (١٨٧٤)، وهي روايات كتبت للإفادة لا للفن، وسيقت للوعظ والتسلية لا حباً لهذا اللون الطريف من ألوان الأدب؛ والشخصيات فيها نماذج أكثر مما هي أشخاص، ودُمى أكثر مما هي حيّة، والأسلوب هو أسلوب الصحفي البسيط الذي يخلو من

الروعة ؛ والبستاني بارع في تشويق القارئ . وكثيراً ما يعتمد وصف المعارك لهذه الغاية ، كما يعتمد المفاجآت والمخاطرات ؛ والكاتب يهتم في قصصه بإيراد التفاصيل والمواظ على أكثر مما يهتم بإحكام الخيال في خلق صورة حيّة واقعية للمجتمع الذي أراد تصويره ، وأكثر مما يهتم بتحليل النفسيات . وإذا لجرجي زيدان (١٨٦١ — ١٩١٤) إحدى وعشرون قصة تاريخية منها : « فتاة غسان » (١٨٩٦ — ١٨٩٨) ، و« عذراء قرش » (١٨٩٨ — ١٨٩٩) ، و« ١٧ رمضان » (١٨٩٩ — ١٩٠٠) ، و« صلاح الدين ومكايد الحشاشين » (١٩١٢ — ١٩١٣) ... وقد أخضع زيدان العمل الفني للغاية التعليمية التي رمى إليها في كل ما كتب ، وضحي بالحركة القصصية في سبيل التفصيلات التاريخية ، ولزم جانب الواقع ما استطاع ، وكثيراً ما اعتمد على الصدفة لربط المواقف وحل العقدة ؛ ولزيدان سياق واحد في قصصه ، يجعل فيه الحكمة واقعة غرام ، ويبني العقدة على فقد زوجة أو زوج أو غيرها وعلى عودة المفقود سالماً ، ويكثر زيدان في قصصه من المغامرات والدسائس وما إلى ذلك ليزيد عنصر التشويق شدة وأثراً ؛ وأما شخصياته فجامدة وهو يميل فيها إلى النماذج المستقيمة ولكنه يعجز عن التحليل العميق وسبر الأغوار النفسية . — وإذا لفرح أنطون (١٨٧٤ — ١٩٢٢) رواية « أورشليم الجديدة أو فتح العرب بيت القدس » (١٩٠٤) وهي ذات عيوب كثيرة وتطرّف في الآراء ، وقد حفلت بالاستطرادات الوعظية والأخبار التاريخية وضعف فيها العمل القصصي ؛ إلا أن صاحبها قد برهن عن تعمق في التفكير والتحليل حتى ليعدّ رائد القصة التحليلية عندنا ، وبرهن عن براعة في التشويق والتعقيد ، كما بثّ في أسلوبه حياة وحرارة ؛ وإذا لغير هؤلاء قصص كثيرة موسومة بسمة التاريخ إلا أنها لم ترق إلى منزلة القصة التاريخية العالمية . وقد « ظلّ هذا الفن متخلفاً في أدبنا حتى ظهرت محاولات نجيب محفوظ (وُلد سنة ١٩١٢) في « عبث الأقدار » و« كفاح طيبة » و« رادوييس » فكانت بداية القصة التاريخية الرومانسية ، التي تضم نغماً متفرقة من تازيخ فترة أو عصر أو شخصية ، وتبنى عليها قصة كاملة تامة الأجزاء .

وظهرت أيضاً في ذلك العهد روايات اجتماعية خالصة من مثل « الهيام في جنان الشام » (١٨٧٠) و« أسماء » (١٨٧٣) ، و« سلمى » (١٨٧٨ — ١٨٧٩) لسليم البستاني ، وهي ضعيفة السياق القصصي ، وتقوم على الصدفة والمبالغة ، وهي حافلة

بالنزعة الوعظية ، والشخصيات فيها بسيطة ، ومن مثل « ذات الخدر » لسعيد البستاني (١٩٠١) وهي مفككة الأجزاء ، حافلة بالوعظ ، وأسلوبها فاتر ، ومن مثل « الوحش الوحش أو سياحة في أرض لبنان » لفرح أنطون وهي مقالة اجتماعية طويلة انتقد فيها صاحبها بعض العادات والأخلاق وتحدث عن نظام المجتمع وسير الكون ، « ولا يهمه فيها سلك القصة أو تسلسل السرد بقدر ما تهتمه تجلية أفكاره وآرائه ». وهكذا أراد فرح أنطون أن يكون في روايته فيلسوفاً ، ناثراً على المجتمع ، وقد جفّ فيها أسلوبه وكانت أشخاصه دُمى في خدمة آرائه . ومن تلك الروايات قصص نقولا حداد (١٨٧٢ — ١٩١٦) التي هدف فيها إلى الإصلاح والتهديب وكان الغرض الاجتماعي فيها يطفئ على العمل الفني وعلى رسم الشخصيات ، و« قلب الرجل » للبيبة هاشم ، وهي محكمة السرد ، حية الأشخاص ، موفقة التحليل ، جميلة الأسلوب ، و« الأجنحة المتكسرة » لجبران خليل جبران (١٨٨٣ — ١٩٣١) وهي حكاية بسيطة يغلب فيها الخيال على العمل القصصي ، وتسير في أسلوب كتابي رائع « تمسح عليه يد الحزن العميق والتشاؤم الأسود بيدها السحرية ، فتلونه بألوانها القاتمة ، وترسم عليها صورة إنسانية رائعة للقلب البشري في كل زمان ومكان ».

٤ - تفصيح الفن القصصي وأشهر أربابه :

وراحت القصة تتابع سيرها وتندرج في مدارج الفن على يد كتّاب تعمّقوا في دراسة قوانينها ، أو تخصصوا في مذاهبها ، وراحوا يتحفون العالم العربي بنار أقلامهم ، ويعالجون هذا اللون من الأدب بفن رفيع ، ومن أشهرهم : محمود تيمور ، وتوفيق الحكيم ، وتوفيق عواد ، ونجيب محفوظ ، ومحمد عبد الحليم عبد الله ، وطه حسين ، وإبراهيم المازني ، وعبد الحميد السحار...

والذي نلاحظه في التأليف القصصي المعاصر أنه مستمد من واقع الحياة الحالية في الشرق ، وأن القصّاصين ، وإن اختلفوا في الاتجاه نحو هذه الحياة وفي طبيعة الموضوعات التي يتبعونها ويعنون بعرضها ، موقنون أن الحياة هي ينبوع القصص الثر ، وأنهم بقدر ما يستوعبون نواحيها المختلفة ويتعمّقون فيها ، بقدر ذلك تسمو كتاباتهم في عالم الخلود الإنساني .

والذي نلاحظه أيضاً أن بعض كتابنا يُعَنون بجمال العبارة ورشاقة الأسلوب أكثر مما يُعَنون بالعمل القصصي، ومن هؤلاء طه حسين في «دعاء الكروان»، و«الحب الضائع»، و«شجرة البؤس»، وهيكمل في «زينب»؛ أما الذين يجمعون بين الفائدة والمتعة، فكثيرون منهم نجيب محفوظ، والمازني، والحكيم... ونجيب محفوظ من الذين رفعوا القصة العربية الى مستوى عال، وفلسفته الاجتماعية «لا تظهر بهذه الطريقة الرخيصة المتبذلة، طريقة الوعظ المباشر، والدعاوة المفضوحة، ولكنها تستتج بوجه عام من اتجاهه في اختيار الحوادث والأحداث، وتنسيقها وتطويرها، وفي خلق الشخصيات وتفسيرها، وإلقاء الأضواء الكاشفة، التي توضح الجوانب الخفية منها». وهكذا استطاع نجيب محفوظ أن يُصوّر أخطر النواحي في المجتمع المصري الحديث في أسلوب رائع وفن رفيع.

٥ - الأقصوصة المعاصرة :

أما الأقصوصة فقد كان لها أيضاً شأن كبير في عهدنا هذا، وقد عني بها الكثيرون من مثل جبران خليل جبران، وإبراهيم المازني، ومحمود تيمور، وميخائيل نعيمة، ومارون عبود، وخليل تقي الدين وغيرهم. وقد بلغت أيضاً في عالم الفن درجة لا بأس بها.



مصادر ومراجع

- محمد يوسف نجم : فن القصة — بيروت ١٩٥٥ . — القصة في الأدب العربي الحديث — القاهرة ١٩٥٢ .
- محمود تيمور : فن القصص — مصر ١٩٤٨ .
- موسى سليمان : الأدب القصصي عند العرب — بيروت ١٩٥٥ .
- أحمد أبو سعد :
- فن القصة — بيروت ١٩٥٥ .
- القصة في الأدب العربي الحديث — القاهرة ١٩٥٢ .
- فخري أبو السعود : القصص في الأدبين العربي والانكليزي — مجلة الرسالة ١٩٣٧ — العدد ١٩٨ .
- شفيق جحا : زيدان الروالي في عذراء قريش — مجلة المنكشف — العدد ٢٢٣ .

الفصل الثالث

المسرح

١ - نشأة المسرح العربي : كانت ولادة المسرح العربي على يد مارون النقاش اللبناني . وقد وضع عدة مسرحيات منها « البخيل » و « الحسود السليط » وقام بتمثيلها هو وفرقة .

٢ - أطوار المسرح العربي :

١ - كانت الخطوة الأولى للمسرح في لبنان ثم قام الشيخ أحمد أبو خليل القباني في دمشق بمحاولات تمثيلية عدة . وكانت مسرحياته من نوع الأوبريت . وكان التحليل النفسي فيها ضئيلاً ومضطرباً .

٢ - وعندما أنشأ الحديو إسماعيل الأوبرا الملكية في القاهرة نشطت حركة المسرح وظهرت عدة فرق تمثيلية من مثل فرقة يوسف الخياط ، وفرقة سليمان القرداحي ، وفرقة سلامة حجازي .

٣ - وفي سنة ١٩١٢ جمع جورج أبيض فرقة مصرية كانت حديثاً ضخماً في تاريخ المسرح العربي . وقد توفر لتمثيلها بعض المقومات الفنية الحقيقية . وقد حرّر جورج أبيض المسرح من الفوضى .

٤ - ثم ظهرت فرقة عبد الرحمن رشدي وقد تخلّصت المسرح من الغناء . ثم ظهر أحمد شوقي بمسرحياته الشهيرة .

٥ - وفي لبنان توجه الأدب . بعد الحرب العالمية الأولى نحو الواقعية الاجتماعية فعالج المسرح بعض قضايا المجتمع . ثم انتقل مع سعيد عقل الى طور الانتماء الكلاسيكي .

أ - نشأة المسرح العربي :

كان مولد المسرح العربي في القرن التاسع عشر على يد فتى صيداوي هو مارون بن الياس بن ميخائيل النقاش (١٨١٧ - ١٨٥٥) ، انتقلت أسرته من صيدا الى بيروت ، وأتقن التركية والفرنسية والإيطالية ، وفي سنة ١٨٤٦ سافر الى مصر فإيطالية للتجارة ، وقضى في إيطاليا مدة من الزمن اطلع في أثناءها على أحوال أبناء الغرب وأعجب بمسرحهم ، ولما عاد إلى بلاده حاول أن يدخل إليها هذا الفن ، فأقام من بيته مسة حاً ،

وراح يكتب القطع المسرحية، ويشكل فرق التمثيل على طريقة موليير المسرحي الفرنسي، وهكذا وضع ثلاث مسرحيات: «البخيل»، و«أبو الحسن المغفل» أو هارون الرشيد»، و«الحسود السليط». وهكذا كانت الخطوة الأولى للأدب المسرحي وللممثل المسرحي.

٢ - أطوار المسرح العربي:

١ - كان لبنان إذن أول من عني بالمسرحية كلون أدبي، وكان احتكاك لبنان بالغرب سبب ظهور المسرح العربي. وقد راق هذا اللون الجديد من الأدب أبناء الشرق: فأكبوا عليه في عهد النقاش وبعده يكتبون المحاولات التمثيلية. فوضع سليم النقاش، وهو ابن أخت مارون، ثلاث مسرحيات: «مي»، و«عائدة»، و«الظلوم دعجاء». ثم قامت في دمشق نهضة أخرى للمسرح على يد الشيخ أحمد أبي خليل القباني الذي قدم محاولات التمثيلية في دار جدّه بدمشق نحو سنة ١٨٦٦، ثم خرج من دار جدّه إلى الجمهور، وكان تأليفه — على حدّ قول خليل مطران —: «خليطاً من هزل وجد، وكلام وغناء، يعرف عند الإفرنج بالأوبريت»؛ وأبدع ضرباً حديثاً يسميه الغربيون «باليه» واسمه عندنا «رقص السماع». ولما ضاقت دمشق بالقباني وقاومه العوام مقاومة عنيفة، سافر إلى مصر سنة ١٨٨٤، فانضمّ إليه كبار الممثلين والممثلات لذلك العهد ومنهم أحمد أبو العدل والقرداخي وسليمان الحدّاد والمطربة لبيبة والممثلة مريم سماط.

وفي هذه الأثناء قام أديب إسحق في لبنان وعرب مأمأة «أندروماك» عن راسين نثراً وشعراً بمزوجين. وذلك نزولاً عند طلب قنصل فرنسا.

٢ - وانتشرت المسرحية انتشاراً واسعاً، ولقي المؤلفون والممثلون في مصر ميداناً رحباً فبمموها من جميع الأقطار العربية؛ وقد أنشأ الخديو إسماعيل الأوبرا الملكية. فجمع سليم النقاش من بيروت جماعة للتمثيل وقصد مصر سنة ١٨٧٦، وكان معه أديب إسحق ويوسف الخياط الذي اشتهر بتمثيل الأدوار النسائية. وبعد مدة أهمل النقاش وأديب إسحق عمل التمثيل وانحازا إلى الصحافة، فجمع يوسف الخياط من بقي من الفرقة وضمّ إليها الشيخ سلامة حجازي والشيخ سيد درويش ومحمد أفندي

عزّت. فكان لهذه الفرقة تأثير كبير على الجماهير، وقد فتحت أمامها أبواب الأوبرا الملكية. وفي سنة ١٨٨٢ ألف سليمان القرداحي فرقة من فلول الفرق المختلفة مُثلت في الإسكندرية والقاهرة، وقد عمل القرداحي على استبدال الرجال بالنساء لتمثيل دور النساء، وكانت الخطوة جريئة وموفقة. وفي سنة ١٨٨٦ جمع إسكندر فرح فرقة ضمت الشيخ سلامة حجازي وقدم لها الروايات الشيخ نجيب الحداد والشيخ أمين الحداد وطانيوس عبده والياس فياض، وكان لهذه الفرقة شأن كبير إلا أنها انقسمت سنة ١٩٠٥، فاستقل الشيخ سلامة حجازي بأشهر ممثليها، وراح يُمثل الروايات المختلفة في حديقة الأزبكية ثم في «دار التمثيل العربي» بحي الأزبكية.

وهكذا كانت الحركة واسعة الأطراف، والنشاط عجيباً، وهكذا اشتهر في تأليف المسرحيات الشيخ خليل اليازجي (١٨٥٦ — ١٨٨٩) صاحب «المروءة والوفاء أو الفرج بعد الضيق»، وهي مسرحية تاريخية شعرية غنائية، واشتهر الشيخ نجيب الحداد (١٨٦٧ — ١٨٩٩) صاحب «صلاح الدين الأيوبي»، كما اشتهر فرح أنطون (١٨٧٤ — ١٩٢٢) صاحب المسرحيات العديدة.

٣ - وفي سنة ١٩١٢ عاد جورج أبيض من فرنسا حيث مكث خمس سنوات يتلقى فيها دروساً في فن التمثيل، وجمع فرقة مصرية «كانت حدثاً ضخماً في تاريخ المسرح المصري»، فهي بحق أول فرقة مسرحية تُراعي شيئاً من المعايير الفنية. فقد جاء جورج بمستويات فنية عالية — نسبياً — تختلف عن مستويات سلامة حجازي. ولأول مرة يشاهد الجمهور المصري تمثيلاً تنوّع له بعض المقومات الفنية. على أن أكبر أثر لجورج أبيض هو أنه ارتفع بالتمثيل إلى مركز يعادل مركز الغناء في العرض، وذلك دون أن يتخلّص المسرح من الغناء. فقد ظلّ هذا جزءاً هاماً من العرض العام... وكان في فرقة جورج ١٢ ملحنًا و١٨ عازفاً برئاسة عبد الحميد علي. وبالرغم من أن جورج قد حرّر المسرح نسبياً من الفوضى التي كان يتخبط فيها إلا أنه ألقى به في دور الخطابة التي تتعارض هي الأخرى مع أسس فن التمثيل والتي تخرج بما فيها من تنعيم وغنائية عن كونها نوعاً من الامتداد المشدّب لمدرسة سلامة حجازي وأسلافه. فلقد كان جورج يعتمد على الزعيق والجعير واللعلعة الصوتية... دون عمق... وظل الإخراج ارتجالاً لا يراعي

المواقف ولا الزمان ولا المكان... وظلّت اللغة هي العربية الفصحى والمتفجرة وإن خفت الزخرفة وقلّ الترصيع مسايرة للتطور الثقافي في تلك المرحلة... أما من الوجهة الوظيفية فلم يخرج جورج عن حدود سلامة حجازي وأسلافه لا من حيث نوع المسرحيات ولا من حيث وضعية الشخصوس التي تقوم عليها المسرحيات^١.

٤ - وقام عبد الرحمن رشدي بفرقة بعد وفاة سلامة حجازي، وراح يُعالج المجتمع المصري الجديد. قال نجيب سرور: «حاولت الفرقة أن تجعل التمثيل انفعالياً ومعايشة، وظلّ الإخراج مرتجلاً ومضطرباً وغير خاضع للأسس الفنية في الحركة والديكور وفي العناصر الأخرى المساعدة كالموسيقى والضوء. وخلصت فرقة عبد الرحمن رشدي المسرح من الغناء فاستقلّ التمثيل لأول مرة. واستخدمت الفرقة اللغة العربية المبسطة... واستخدمت اللغة العامية في بعض المسرحيات. وتخلّص معها المسرح تقريباً من شخوص الملوك والخلفاء والأمراء والقواد أو الوزراء لتظهر شخصيات عصرية متواضعة». وهكذا سار المسرح المصري بين هبوط وصعود، ولم يصل إلى درجة ذات قيمة في التأليف إلا مع الشاعر أحمد شوقي (١٨٦٨ - ١٩٣٢) صاحب «مصرع كليوباترا» و«مجنون ليل» وغيرهما.

٥ - أما في لبنان فقد ظلّ المسرح يسير على طريق الترجمة والاقتباس والتقليد، وعلى طريق التوجيه نحو المثل القويمة والبطولات الرفيعة، وتعميق الشعور الديني، وبعث الروح الوطني وما إلى ذلك، حتى انتهت الحرب العالمية الأولى، فتوجّه الأدب نحو الواقعية الاجتماعية، ووضع مبخائيل نعيمة مسرحية «الآباء والبنون» وأوضح فيها ما يعتبره المجتمع اللبناني «من علل تحدّرت إليه بالعادة، واستقرّت في تقاليد، وأوجدت ذلك الشقاق بين الآباء الذين يحيون دون تفكير بالحياة الحديثة المتجددة والبنين الذين ينهدون إلى التخلّص من القديم في الأدب وفي طراز المعيشة، وفي التفكير الاجتماعي والسياسي»^٢. وهكذا تحوّل النظر المسرحي إلى الواقع الاجتماعي يعالجه بمختلف الوسائل والأساليب. وفي سنة ١٩٣٥ ظهر سعيد عقل بمسرحيته الشعرية «بنت يفتاح» ودرج

١ - نجيب سرور: مخططات في المسرح المصري - مجلة الآداب عدد كانون الثاني ١٩٥٧.

٢ - طالع عبد اللطيف شرارة في مقاله «المسرح اللبناني الحديث» - مجلة الآداب عدد كانون الثاني ١٩٥٧.

ففيها على أسلوب قدامى اليونان وعلى أسلوب الفرنسيين الكلاسيكي ، وراح يوجه المسرح العربي توجيهاً كلاسيكياً ولا سيما في مأساته «قدموس» التي نالت استحسان الطبقة العالية من رجال الفكر والأدب.

وهكذا سار المسرح العربي من طور التعريب والاقتباس والتقليد ، إلى طور المحاولات ، إلى طور الواقعية الاجتماعية ، إلى طور الاتجاه الكلاسيكي.

مصادر ومراجع

- مجلة الآداب — السنة ٥ (١٩٥٧) عدد خاص بالمسرح.
- محمد يوسف نجم :
- القصة في الأدب العربي الحديث — القاهرة ١٩٥٢.
- المسرحية في الأدب العربي الحديث — بيروت ١٩٥٦.
- مارون النقاش — بيروت ١٩٦١.
- محمد تيمور : حياتنا التمثيلية — القاهرة ١٩٢٢.
- عبد الرحمن صدقي : المسرح العربي — مجلة الكتاب ١٩٥١.
- زكي طليمات :
- كيف دخل التمثيل بلاد الشرق — مجلة الكتاب ١٩٤٦.
- نهضة التمثيل في الشرق العربي — مجلة الهلال — أبريل ١٩٣٩.

الفصل الرابع

النقد الأدبي والمقالة الصحفية

١ - عوامل النقد الحديث : من عوامل النقد الحديث احتكاك الشرق بالغرب ، وتقدم العلوم والفلسفة ، وتعدد وسائل التحرر ، وانتشار المؤلفات بالطباعة . كل ذلك حفز النقد وجعله يجري على مقاييس عقلية وفلسفية .

٢ - النقد اللغوي : بدأ النقد ، في عهد النهضة ، لغوياً يعالج الألفاظ والتراكيب والأساليب . وذلك لشروع الاضطراب والضعف في الكتابة الخارجة من ظلمة المخطوطات قصى على الجزالة والفصاحة . وقد اشتهر في هذا الباب الشيخ ابراهيم اليازجي وأحمد فارس الشدياق .

٣ - النقد النظري والعملي : توجه النقد بعد هذه المرحلة الأولى الى دراسة صحة الآثار ، والتقييد عن أصحابها ، وإلى الفنون الأدبية وتبيان قواعدها وأساليبها . وكان زعيم الحركة في هذا الباب سليمان البستاني في مقدمة الألياذة .

٤ - النقد التحقيقي : وظهر بعد ذلك طه حسين فجعل في نقده الشك في طريق اليقين . وكان نقده نموذجاً عالياً من نماذج التحقيق .

٥ - انتشار النقد : انتشر النقد انتشاراً واسعاً وكان من أربابه عمر فاضوري ، ومارون عبود ، وعباس محمود العقاد . و ابراهيم المازني وغيرهم .

٦ - المقالة الصحفية وأثرها : تطورت المقالة الصحفية ولاسيما بعد الحرب العالمية الثانية وكانت وسيلة ناجعة لنقد الآثار ، ومحاربة الاستبداد . وتحرير المرأة ، وانصاف العامل ونشر العلم ، وبث روح الإخاء والمساواة ...

١ - عوامل النقد الحديث :

عرضنا في ما سبق للنقد عند العرب ، وتتبعناه منذ نشأته إلى أواخر العهد العباسي . وقد واصل سيره في عهد الانحطاط متقلباً بين الضعف والاضطراب . ولما كان عهد النهضة واتصل الشرق بالغرب ، وقف أبناء هذه البلاد على أساليب الغرب في هذا الباب ، وعرفوا أن النقد ذو أصول وطرق ، وأدركوا ما له من أهمية في توجيه الكتابة

والتأليف ، وما له من أفضال على نهضة الشعوب . وكانت العلوم والفلسفة قد أدركت شوطاً عظيماً من التقدم ، والعقل قد وقف أمام الماضي موقفَ الشكِّ ، وأمام الحاضر والمستقبل موقفَ التفهُّم والكشف عن الأسرار الطبيعية . وتعدّدت في هذا العهد وسائل التحري ، ونشرت الطباعة ما كان محبباً أو ما كان في متناول العدد القليل من الناس ، ونُبشت خزائنُ المخطوطات . وهكذا كان لاتصال الشرق بالغرب وبأساليبه النقدية ، ولتخرج الطلبة على أساتذة توفّر لهم الذوق الفني والثقافة الأدبية الراقية ، ولتقدّم العلوم السيكولوجية والتاريخية ، ولاتساع المجال لحرية القول والكتابة — ولا سيما بعد الحرب الكونية الأولى — أثرٌ بليغ في نشأة الروح النقدية العصرية عند أبناء الشرق . فوثب النقد وثبةً عظيمة ، وراح يجري على مقاييس عقلية وفلسفية ، ويعتمد المنطق والموازنة في البحث ، ويذكر المسببات وأسبابها ، رابطاً اللاحق منها بالسابق ، متقصياً المعاني قبل المباني ، متجرداً من الأميال والأهواء الشخصية قدر المستطاع ، لا ينظر إلا بعين العلم ليزن كلّ شيء بميزانه .

٢ - النقد اللغوي :

وقد انحاز النقد في مطلع النهضة إلى الناحية اللغوية والأسلوبية في الكتابة ؛ وذلك لسبب لا يخفى على أحد ألا وهو ما تراكم على اللغة في عهد الانحطاط من ثقل وضعف واضطراب . فهض رواد النهضة يعالجون هذا المرض المزمن ، وراحوا يتدارسون اللغة في أصولها واشتقاقها وأساليب تركيبها . وراحوا يتبعون الضعف واللين في الكتابة ، ويقومون ما اعوج ، ويصلحون ما أفسد . وكان زعيم الحركة في هذا المضمار الشيخ إبراهيم اليازجي نجلاً الشيخ ناصيف اليازجي . وقد نصب اليازجي نفسه لخدمة اللغة ، فتعمّق في علومها ، وتتبعها على ممر عصورها ، وتفهم جميع أسرارها ، وراح يعالج كلّ ضعف فيها منذ أقدم عصورها إلى عصره ، وإذا به يُهاجم الكتاب والشعراء ، يُهاجم أرباب اللغة والبيان ، يُهاجم ناشري المعاجم وكاتبي الصحف ؛ يُهاجم لا لمجرد المهاجمة ولكن قصد الإصلاح ، فيبين الخطأ وسببه ، ويبين وجه الصواب وسببه ، بحجة دامغة ، وجراءة عجيبة ، ورصانة ما بعدها رصانة ، لا يهمنه من قال حتى إذا كان أباه أو هو نفسه ، بل ما قيل وما كتُب . وقد استخدم اليازجي ثقافته الواسعة ، وبصيرته

النافذة ، وذوقه السليم ، ومنطقه القويم ، لرفع مستوى اللغة وإرشاد الكتاب . وهكذا كان له الفضل الأكبر في رفع مستوى الكتابة في عهد النهضة ، وهكذا كان المعلم الأكبر لكل من كتب في عهده وبعد عهده . وقد شاركه في الميدان أحمد فارس الشدياق صاحب « الجاسوس على القاموس » .

٢ - النقد النظري والعملي :

وبعد التيار اللغوي توجهت الأبصار إلى دراسة صحة الآثار ، والتفتيح عن أصحابها ، وإلى الفنون الأدبية وتبيان قواعدها وأساليبها ، وذلك بأسلوب علمي صحيح . وكانت الزعامة في هذا الباب لسليمان البستاني معرب الإلياذة . وقد تنبه الرجل لافتقار اللغة العربية والأدب العربي إلى ترجمة إلياذة هوميروس رأس شعراء اليونان ؛ فراح ينقلها شعراً إلى لغة قومه ، ثم راح ينشئ لها مقدمة طويلة ، ويعلق على صفحاتها تعليقات تاريخية أدبية فلسفية واسعة النطاق . فبرزت المقدمة إلى عالم العرب بأسلوب جديد في النقد النظري والنقد العملي ، وراحت تعالج قضية الإلياذة في صحة نسبتها إلى صاحبها ، وفي صحة رواياتها ، وراحت تتبع مؤرخيها ، وأساليبها ونفسية أبطالها ، وتعاليمها الفلسفية ، وتقيم الموازنة ما بينها وبين ما يماثل بعض مقاطعها في الأدب العربي ؛ وراحت تدرس أساليب الترجمة والتعريب وفلسفة الألفاظ والتراكيب إلى غير ذلك مما ألقى على الأدب العربي وأدب الإلياذة أضواءً نيرة ، ومما دفع النقد في طريقه العلمية الجديدة .

٣ - النقد التحقيقي :

ثم جاء طه حسين وقد تملأ من أدب الغرب وفلسفة الثورة والشك . فراح يعالج الأدب عن طريق الشك ، ويدرس تاريخ النقاد والأحزاب والرواة عند العرب ويكشف عما هنالك من خلط وتخليط ؛ فكانت آثاره ولا سيما « الأدب الجاهلي » تلقي دروساً واسعة في العالم العربي كله وتعلم طرق التمحيص ، والمقابلة ، والتحقيق العلمي ، والتحليل الفني والأدبي ، وإن لم تخل من مغالاة في الآراء وضلال في العرض والاستنتاج .

٥ - انتشار النقد :

وكثر الإنتاج الأدبي في العالم العربي بعد أن تسرب إلينا كثير من مبادئ النقد الغربي في أصول الفن والجمال ، وبعد أن تعدد رجال الاختصاص . واشتهر في لبنان ميخائيل نعيمة أحد رواد النقد الإفرادي في كتابه «الغربال» إذ ظهرت مقالاته في «السائح» منذ سنة ١٩٢١ ، وعمر فاخوري صاحب الأبحاث القيمة المنشورة في «المعرض» و«البيان» وغيرهما منذ سنة ١٩٢٤ ، ومارون عبود صاحب «الرؤوس» . واشتهر في مصر عباس محمود العقاد صاحب «ابن الرومي» ، وإبراهيم عبد القادر المازني صاحب «حصاد الهشيم» ، وأحمد الشايب صاحب «تاريخ الشعر السياسي» و«تاريخ النقائض في الشعر العربي» وشوقي ضيف صاحب «الفن ومذاهبه في الشعر العربي» و«الفن ومذاهبه في النثر العربي» . واشتهر في سورية محمد كرد علي صاحب «أمراء البيان» ، واشتهر غيرهم كثرون ممن خطوا بالنقد خطوة مباركة .

والحق يقال إن مكتباتنا ومجلاتنا وصحفنا تغص اليوم بالدراسات الأدبية والنقدية ، ولئن كثرت فيها الغث والقصير المدى فهي لا تخلو من الآثار القيّمة ولا سيما تلك الأبحاث التي توحى بها الجامعات الكبرى ، في مصر وبيروت ودمشق وسائر العواصم العربية ، والتي تقوم على نظر علمي صحيح ، وطرق فنية عالمية .

٦ - المقالة الصحفية وأثرها :

وهكذا كان للمقالة الصحفية أكبر الأثر في معالجة النقد الأدبي ، كما كان لها الأثر العميق في معالجة الأوضاع الاجتماعية والثقافية والفنية ، وقد تطورت المقالة بتطور المجتمع وتطور الصحافة ، وبلغت أوجها ، كفن أدبي ، بعد الحرب العالمية الثانية وقد امتازت «بالتركيز والدقة العلمية والميل إلى بث الثقافة العامة لتربية أذواق الناس وعقولهم» . ولم يكن أثر المجلات دون أثر الصحف تطويراً لفن المقالة وبلورته . وقد لخص الدكتور محمد يوسف نجم ذلك الأثر وأرجعه إلى «تطويع اللغة وتهذيب أسلوب الكتابة بحيث أصبح أداة مؤاتية لنقل الأفكار الحديثة»^٢ ، ثم إلى «اتساع صفحاتها لنشر مختلف أنواع المقالة من ذاتية وموضوعية»^٣ ، وأنشيراً إلى «خلق طبقة من الكتاب الذين

عُنوا بفنّ المقالة وجعلوها الوسيلة الأولى لنقل أفكارهم وإذاعة آرائهم». ومرجع القضايا التي عالجتها المقالة في عصرنا الحديث إلى محاربة الاستبداد والاستعمار ، وتحرير المرأة ، وإنصاف العامل ، ونشر العلم ، وبثّ روح الإخاء والمساواة ، وتوفير الضمانات الاجتماعية ، وتنشيط الزراعة والصناعة ، وتوحيد الكلمة ، وتحطيم نير التقاليد وما إلى ذلك .



الفصل الخامس التاريخ والعلوم

١ - انتقال من الجمع الى الوضع . لم يعرف المؤرخون القدامى الأساليب العلمية في التحقيق والتحليل والتعليل . فجاءت تواريتهم مطولات متسعة تردحهم فيها الأخبار في غير اختيار ولا تمثيل . ولمّا كانت النهضة وعرف الباحثون والمؤرخون أساليب البحث والتحري والتحقيق انتقل التاريخ معهم الى علم حقيقي . وجاءت مؤلفاتهم التاريخية ذات قيمة علمية رفيعة .

٢ - عوامل التاريخ الحديث وأساطينه : عرف التاريخ في هذا العهد بمعناه الصحيح ، وساعد على معالجته بطريقة علمية ما انتشر في البلاد من متاحف ومن تتبع لآثار الأقدمين . ومن تعاون بين علماء الشرق والغرب ... وقد اشتهر فيه جرجي زيدان وعيسى اسكندر المعلوف ومحمد كرد عي وأحمد أمين .

٣ - الدراسة العلمية : كان لها شأن كبير . وقد عالجها يعقوب صرّوف في بحثه « المقتطف » . وكان بذلك من أبرز رجال النهضة العلمية الحديثة .

١ - انتقال من الجمع الى الوضع :

ألقينا فيما سبق نظرة على الدراسات التاريخية والعلمية عند العرب . فألفيناها تسير على أسلوب تقليدي أكثر ممّا تسير على أسلوب علمي صحيح . وذلك لضعف الوسائل وضيق النطاق الثقافي بالنسبة إلى عصرنا هذا . ومن ثم فقد حفلت تلك الدراسات بالأوهام والخرافات ، واصطبغت بصبغة الجمع والإكثار منه أكثر ممّا عُنيت بالتنسيق والتحري وربط الأسباب بالمسببات . ولما أطلّ عهد النهضة وعرف الشرقيون أساليب أبناء الغرب في شتى العلوم ، ووقفوا على مكتشفاتهم وهجومهم على الطبيعة لضبط قواها وتسخيرها في مرافقهم ، راحوا ينهلون من ينابيعهم ، ويتدارسون أساليبهم . ولم تحضر مدّة من الزمن إلّا ولدينا المؤرخون والباحثون على طريقة حديثة وأسلوب جديد .

٢ - عوامل التاريخ الحديث واساطينه :

عُرف التاريخ في هذا العهد بمعناه الصحيح ، وعرف أنه سجل للحقيقة المجردة عن كل غاية وكل ميل ، للحقيقة المعللة أياً كانت . فراح الناس يعالجونه على ضوء العلم الحديث ، وكان زعيمهم في هذا الميدان جرجي زيدان ، وراحوا يعالجونه على نطاق واسع ، فكان لكل موضوع تاريخ ، ولكل ناحية من نواحي الحياة تاريخ . وهكذا كان لدينا تاريخ الأمم القديمة والحديثة ، وتاريخ الحضارة ، وتاريخ الأديان وكل دين على حده ، وتاريخ الصحافة ، وتاريخ الأدب إلى غير ذلك مما لا حد له . وقد ساعد علماء التاريخ ما أقيم في البلاد من متاحف ، وما قام فيها من تتبع لآثار الأقدمين ، ومن نبش لحفايا الأرض ، وما تقاطر على البلاد بعد الحرب الكونية الأولى من علماء أجنبية تعاونوا مع أبناء هذه البلاد للتغلغل في أعماق الأرض والقيام بحفريات جبيلة ، وما انتشر من معرفة للغات وقراءة الكتابات القديمة إلى غير ذلك مما كان له الأثر الجليل في تقدم علم التاريخ .

واشتهر في كتابة التاريخ ، فضلاً عن جرجي زيدان ، أحمد أمين صاحب « فجر الإسلام » و« ضحى الإسلام » و« ظهر الإسلام » ، و« قصة الأدب » ، واشتهر محمد حسين هيكل صاحب « حياة محمد » ، وفيليب دي طرازي صاحب « تاريخ الصحافة » ، وعيسى إسكندر المعلوف ، صاحب تاريخ الأمير فخر الدين وتاريخ مدينة زحلة وغيرهما ، ومحمد كرد علي صاحب « خطط الشام » .

٣ - الدراسة العلمية :

أما الدراسة العلمية فكان لها أيضاً شأن كبير وقد عالجها بنوع خاص يعقوب صروف ، فأنشأ مجلة « المقتطف » في بيروت سنة ١٨٧٦ ثم نقلها إلى مصر سنة ١٨٨٨ ، وظل يديرها نحو خمسين عاماً . وكان مطبوعاً على حب البحث والتدقيق شأن العلماء ، يقضي الساعات الطويلة في المكتبات لدرس المسائل العلمية ، والنظريات الفلسفية والتاريخية . وقد بسط في مقالاته العلمية التي كان ينشرها في كل عدد من المقتطف اختبارات العلماء الغربيين في مختلف القضايا العلمية بأسلوب له صبغته العلمية من غير أن يكون جافاً . وهكذا كان يعقوب صروف من أبرز رجال النهضة العلمية الحديثة .

الباب الثالث

شعر النهضة الحديثة

- ١ - إحياء القديم : كانت مرحلة الشعر الأولى في عهد النهضة الرجوع الى الجزالة العباسية والموضوعات القديمة فامتاز ذلك الشعر بالدقة في التعبير والتوفر على المعاني واستقامة الوزن . (ناصيف اليازجي) .
- ٢ - بين القديم والحديث : وكانت المرحلة الثانية تنبئ الشعراء الى أن الشعر تعبير عن الشعور الذاتي والجماعي ، فجلدوا في الموضوعات والأخيلة وحافظوا على الأسلوب القديم والمتانة التعبيرية ، ومن هؤلاء أحمد شوقي ومعرفة الرصافي .
- ٣ - الشعر الجديد : وكانت المرحلة الثالثة محاولة هجر الأساليب العربية والعودة الى كل قديم ، واندفاعاً شبه كامل على الأجنبي من المعنى والخيال والعاطفة والتعبير . وكان هنالك عدة تيارات :
 - ١ - التيار الرومنطي الذي تجلّت مظاهره في الرجوع الى الماضي وذكرياته واللجوء الى الطبيعة والانتماء فيها . ولم يكده يسلم شاعر في هذا العهد من التأثير الرومنطيقي .
 - ٢ - التيار الواقعي الذي أراد أن يتوجه الى الحياة كما هي . وبالعلاج القضايا القومية والاجتماعية والإنسانية .
 - ٣ - التيار الرمزي الذي حاول التعبير عن الأمور بالتلميح لا بالمصارحة ولا بطرق البيان المبهودة . واعتبار الشعر موسيقى توحى بالمعاني .

١ - إحياء القديم :

كانت نقطة الشرق عامّة منذ ما اتصل بحضارة الغرب ، وكان أثرها الأول في الشعر أنها لفتت الأنظار الى ما فيه من ضعف وما وصل إليه من سخافة وركاكة ؛ فراح رواد النهضة يستقون من ينابيع الشعر العباسي ويطبعون على غرارهِ ، وقد راقهم أسلوب أبي تمام والبحتري والمتنبي ، فتدارسوا آثارهم وحفظوا أشعارهم . ومالوا الى المديح والرثاء والى كل ما هو من أدب المناسبات ؛ وهكذا تقيّدوا بالموضوعات القديمة . وحرصوا على الدقة في التعبير ، والمتانة اللغوية ، والتوفر على المعاني ، والصفاء الشعري ،

واستقامة النظم ، وإن لم يتخلَّصوا تمام التخلُّص من بعض مخلفات الانحطاط كالتَّخْمِيس ، والتَّوَارِيخ الشعرية ، والألاعيب البديعية والسَّحْوِيَّة ؛ وهكذا نجح أولئك الشعراء في التقليد وأخفقوا في ناحية الابتكار وجعل صلة بين شعرهم ونفسهم وبينهم . وكان من هذه الفئة الأولى نقولا الترك وبطرس كرامة في لبنان ، وإسماعيل الحشَّاب ، وحسن العطار ، وعلى الدرويش في مصر ، وأمين الجندي في سورية .

٢ - بين القديم والحديث :

ولم تمض مدة من الزمن حتى تنبَّه الشعراء الى أنَّ الشعر هو تعبير عن الشعور الذاتي والجماعي ، فراحوا يعالجونه على هذه الطريقة ولكنهم ثبتوا على تقدير القديم فأرادوا شعرهم على أساس الشعر العربي القديم ؛ وهكذا دعمهم آداب الغرب الى التجديد في الموضوعات والأخيلة ، ودعاهم الأدب العربي القديم الى التقليد في الأسلوب والمتانة التعبيرية ، والاحتفاظ بالوزن الواحد والقافية الواحدة في القصيدة الواحدة ، وإن جنحوا الى الإكثار من استعمال ما لان وخفَّ من الأوزان والقوافي . وهكذا وقفوا موقفاً وسطاً ، وبقي تجديدهم ضيق النطاق لم يُعبِّر عن فلسفة أو عقيدة أو حب للطبيعة إلا في ما ندر ، ولم ينشر مذهباً جديداً في الأدب . وكان شعرهم في الأغلب شعر مناسبات تُجمِّع قصائده في ديوان من غير وحدة أو غاية مشتركة ، ومن شعراء هذه الفئة أحمد شوقي ، ومعروف الرصافي ، وحافظ إبراهيم .

٣ - الشعر الجديد :

واشتدَّ اتصال الشرق بالغرب وبالشعوب الأميركية المنحررة ، ولا سيما بعد الحرب العالمية الأولى ؛ فراح الأدباء في الوطن والمهاجر ينادون بهجر الأساليب العربية ، وبالنزعة على كل ما هو عربي قديم ، وبالاقتداء بأدب الغرب وطرق أدائه . ولم تكن ثورتهم كثورة رواد الأدب العباسي بل كانت اندفاعاً شبه كامل على الأجنبي من المعنى والخيال والعاطفة والتعبير . ومن ثم فقد كان نطاق عملهم شديد الاتساع ، وكان لكل شاعر شرقي مثلاً من شعراء الغرب ينسج على منواله ، ولكل مدرسة غربية في الشعر تمثيل في البلاد العربية ، وإذا عندنا تيارات مختلفة النزعات ، متباينة الأهداف ، يسير كل تيار منها على طريق ، منها التيار الرومنطقي ، والتيار الواقعي ، والتيار الرمزي .

« التيار الرومنطقيّ: أما التيار الرومنطقيّ الابتداعي فقد انبثق عندنا من ويلات الحرب ومن الاستبداد الحميديّ، ثم من الضيقة الاقتصادية والاجتماعيّة، فسادت فيه العاطفة المتألّمة، والنظر المُشائم إلى الكون، وراح يتطلّب الألوان الزاهية البراقة، والأحداث الشديدة التأثير في القلب والنفس، ومال إلى التحدّث عن خوالج النفس، ومناجاة الطبيعة، والإفضاء إليها بما في الصدر من آلام. وقد اتّسمت أعمال كثير من أدبائنا بهذا اللون الابتداعي، وطُبعت بطابع الذاتية والفردية والتأملية والروح الغيبيّ والصوفي، والميل إلى الرضى بالبؤس والواقع الزريّ، وعدم التعقّل، والكآبة ونداء الموت، بل الفزع إلى الانتحار في بعض الأحيان... وقد تجلّت مظاهر هذا المذهب الابتداعيّ في مظهرين بارزين: الرجوع إلى الماضي وذكرياته، واتخاذة مثلاً أعلى، واللّواذ إلى الطبيعة والاتّصال بها بل الاندماج فيها. وهذان المظهران ثمرة من ثمار فساد المدن، هذا الفساد الذي جعل الأدباء الحساسين يذهبون إلى الماضي حيناً، وإلى الزيف والطبيعة حيناً آخر، أو يتناولون الموضوعات التافهة التي لا صلة لها بالحياة». وكان زعيم التيار الابتداعيّ عند العرب في العهد الحديث خليل مطران صاحب «المساء» و«الأسد الباكي». ولم يكدّ يسلم شاعر في هذا العهد من التأثير الرومنطقيّ، حتى إذا كان اتباعياً كالباروديّ وشوقي وحافظ إبراهيم.

وهكذا حفل الشرق في ربيع القرن الأخير بشعراء الابتداعية، في مصر ولبنان وسورية والعراق والمهاجر. وتجلّت في آثارهم الرومنطقيّة، وإذا هنالك هرب من الواقع وطيران في دنيا الخيال مع الشاعر المصري محمد عبد المّعطي الهَمْشَرِيّ في ملحّمته «شاطئ الأعراف»، ومع الشاعر اللبناني فوزي المعلوف في ملحّمته «بساط الرّيح»، وإذا هنالك حنين إلى الماضي وذكرياته مع الشاعر المهجريّ رشيد أيوب، وإذا هنالك شعر في الطبيعة مجنّح الخيال مع الشاعر المهجريّ شكر الله الجوّ صاحب «هيكل الطبيعة»، وإذا هنالك فرار من الحياة وطيران في دنيا الوهم مع الشاعر سيّد قطب صاحب «إلى الشاطئ المجهول».

والذي نلاحظه في هذا التيار الابتداعي ما هنالك من نزعة انطوائيّة ذاتية تظهر بجلاء في شعر محمد منير ومزّي، وفي غزليّات أمين نخلة، وفي أناث خليل شيبوب وفايذ

العمروسي ومحمد فهمي وحسن كامل الصيرفي وأبي القاسم الشاذلي وغيرهم، وما هنالك من نزعة جنسية، وطلب اللذات المصاحبة للآلام، وانحراف مريض في الخواطر كما نجد ذلك في شعر عمر أبي ريشة، ونزار قباني، وكامل أمين وغيرهم.

• التيار الواقعي: وأما التيار الواقعي فهو الذي قام في وجه الرومنطيقية الواهمة، وأراد أن يتوجه إلى الحياة كما هي، ويتحسس ما فيها، ويعالج قضاياها. وقد لمسنا هذا التيار عند بعض شعراء الأتباع وشعراء الابتداء، إلا أنه ما عثم أن انتشر انتشاراً عظيماً ولا سيما بعد أن تبلور الوعي الباطني والاجتماعي والإنساني، وقد تناول الناحية القومية أو الاجتماعية، كما تناول الناحية الإنسانية. واشتهر في هذا الباب الياس قنصل وغيره.

قال مصطفى عبد اللطيف السحرتي: «وهذا الاتجاه الواقعي إن دلّ على شيء فأول ما يدلّ عليه هو شعور شعراء الشرق بوجود الخروج من حياة الانكماش والعزلة، وحمل حظّ من المسؤولية الاجتماعية. ولا بدّ أن يُصاحب هذا الشعور تجاوبٌ حقيقيّ مع الأحداث الاجتماعية، وفهم واسع لها والإعراب عن هذه الأحداث في قوّة وجمال، ولن يجود هذا الشعر إذا لم يتحدث الشاعر عن شعور دفاق وتجربة حقّة دون التحدّث بما يتخيّله عن الناس أو عن آرائهم، أو أن يُعبّر عما يسطرّ في الصحافة أو يدور على المنابر»^١.

• التيار الرمزي: وأما التيار الرمزي فكان مذهبه التعبير عن الأمور بالتلميح لا بالمصارحة ولا بطرق البيان المعهودة، واعتبار الشعر موسيقى توحى بالمعاني. وقد عني بالألفاظ الشفافة ذات الجرس الموسيقي، وانحاز إلى الغموض والتعقيد. وهكذا خالف التيار الرمزي ستة الشعر المألوف في موضوعه وفي صياغته، وكان ازدهاره في أواخر القرن التاسع عشر وفي القرن العشرين. ومن نوادر الشعراء الشرقيين الذين اتّبَعوا الطريقة الرمزية أسلوباً وموضوعاً بشر فارس.

ومن شعراء الشرق الذين تأثروا بالرمزية تأثراً جزئياً الصيرفي في مصر، ونزار قباني في سورية، وصلاح الأسير في لبنان، وقد قصروا رمزيّتهم على الترنيم الموسيقيّ الأسر،

وسعيد عقل وأمين نخلة ومبشال بشير وقد قصروا رمزيّتهم على التعبير أو الصورة ، وسليم حيدر وإيليا أبو ماضي وأحمد زكي أبو شادي وقد بثّوا الرمزية في موضوعهم أو تجربتهم مع الإبقاء على الصياغة المألوفة .

وهكذا شاعت الرمزية عند طائفة من شعرائنا وتناولت ، أكثر ما تناولت ، ناحية الصُّور والكلمات والجُرس الموسيقي ، ومن طريف ما استعملوه قولهم مثلاً : «رغبة مبحوحة» أي غير معبر عنها ، و«الانعناق الأزرق» أي الانطلاق في الأجواء العالية عند الغروب ، و«الوشوشة السخية الظلال» أي الهمسات اللينة التي تنفياً نفس الشاعر ظلالها...

وإن من تأمل هذا النوع من الشعر وجد فيه توجيهاً جديداً رائعاً ، وانفلاتاً من القيود ، وانطلاقاً في عالم رحب الآفاق . ولولا ما فيه من الغموض الشاذ أحياناً لعددناه أجمل ثمرة من ثمار النهضة الحديثة .

وهكذا جرى الشعر : وهكذا تقدّم في مجالات الفن والجمال ، وكان حدثاً عظيماً في تاريخ أدبنا الحديث .

مصادر ومراجع

- مارون عبود : رواد النهضة الحديثة -- بيروت ١٩٥٢ .
- عبد الوهاب حمودة : التجديد في الأدب المصري الحديث -- القاهرة .
- مصطفى عبد اللطيف السحرتي : الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث -- القاهرة ١٩٤٨ .
- أنطوان غطاس كرم : الرمزية والأدب العربي الحديث -- بيروت ١٩٤٩ .
- شوقي ضيف : دراسات في الأدب العربي المعاصر -- القاهرة .
- عباس العقاد : شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي -- القاهرة ١٩٣٧ .
- روفايل بطي : الأدب المصري في العراق العربي -- بغداد ١٩٢١ .
- وديع ديب : الشعر العربي في المهجر الأميركي -- بيروت ١٩٥٥ .
- عمر الدسوقي : في الأدب الحديث -- القاهرة ١٩٥٣ .
- توفيق الراعي : ما وراء البحار أو النبوغ العربي في العالم الجديد .
- صلاح لبكي : لبنان الشاعر -- بيروت ١٩٥٤ .

١ - تاريخه :

هو ناصيف بن عبد الله اليازجي .
وُلد سنة ١٨٠٠ في قرية كفرشيا بجوار
بيروت من أب كان يتعاطى الطبَّ
العربي وينظم الشعر ، ونشأ على
حبِّ العلم ، فتلقَّن مبادئ القراءة
على راحب من بيت شباب اسمه
متى ، ثم انصرف الى المطالعة والى
زيارة المكتبات للتَّحصيل ، وكان له
من حدة ذاكرته ما ساعده على
الحفظ والاستزادة من كلِّ علم وفنَّ .



ناصر اليازجي

ولم تمض مدة وجيزة من الوقت حتى
أصبح الشيخ ناصيف إماماً من أئمة اللغة والنحو والبيان ، وقد نظم الشعر منذ
حدثه ، وراح يخوض ميدانه ويتنقل في أبوابه من باب الى باب ، فطار له في البلاد
صيت ، فاستدعاه البطريرك الكاثوليكي الملكي اغناطيوس الخامس الى دير القرقفة ،
بجوار كفرشيا ، فكتب له ستين عاد بعدهما الى بيته يواصل التثقيب والتَّحصيل .

وجرى إذ ذاك أن اتصل بالأمير بشير ومدحه فاستدعاه الأمير سنة ١٨٢٨ الى قصره
بيت الدين فكان بلبل البلاط وشاعره الغريد ، وفي سنة ١٨٤٠ انتقل الشاعر الى بيروت
واتَّصل بالمرسلين الأميركيين واشتغل في تصحيح كتبهم وعمل على تنقيح ترجمتهم
للكتاب المقدس ، وانضمَّ الى الجمعية السورية ، ودرَّس العربية في المدرسة الوطنية
للمعلم بطرس البستاني وفي المدرسة البطريركية والكلية الأميركية . وفي سنة ١٨٦٩
أصيب بفالج أودى بحياته سنة ١٨٧١ .

٢ - أدبه :

الشيخ ناصيف اليازجي أحد أركان النهضة الحديثة في الشرق ، وقد استطاع بجده

البَابُ الرَّابِعُ
أُورُبَاءُ النَّهْضَةِ الْحَدِيثَةِ
الفَصْلُ الْأَوَّلُ
رُؤَادُ النَّهْضَةِ الْحَدِيثَةِ فِي النَّثْرِ

الشَّيْخُ نَاصِيفُ الْيَازْجِي

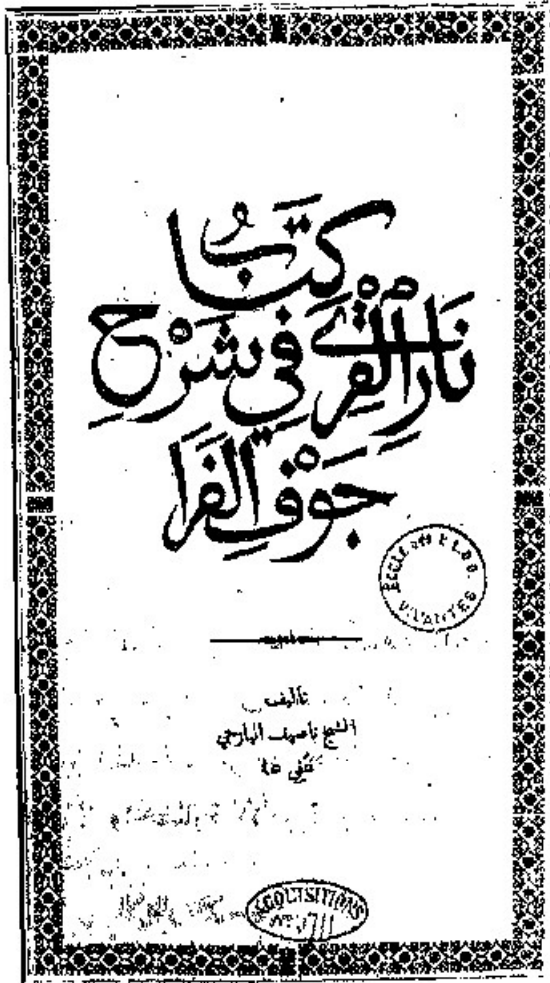
(١٨٠٠ - ١٨٧١)

١ - تاريخه : وُلِدَ ناصيف اليازجي في قرية كفرشبا سنة ١٨٠٠ وتلقَّى مبادئ علومه على راهب اسمه متى . ثم أخذ في المطالعة والتحصيل حتى أصبح إماماً من أئمة اللغة والنحو والبيان ، فاستدعاه البطريرك الكاثوليكي وأقامه على كتابة ديوانه سنتين ، وفي سنة ١٨٢٨ استدعاه الأمير بشير ليكون شاعر بلاطه ، وفي سنة ١٨٤٠ عاد الى بيروت مدرّساً ومصحّحاً ، وقد توفّي سنة ١٨٧١ .

٢ - أدبه : للشَّيْخ ناصيف آثار كثيرة منها في النحو «نار القرى في شرح جوف الفراء» ، وفي فنّ المقامة «مجمع البحرين» ، وله أيضاً ديوان من الشعر .

٣ - مقاماته : وضع اليازجي ستين مقامة في كتاب أسماه «مجمع البحرين» ، وجعل مسرحها قديماً ، وراويتها سهيل بن عباد ، وبطلها ميمون بن خزام وهو أشدّ امتداداً في المادّة العلميّة من بطل مقامات الحمداي ولكنه دونه مادّة لفظيّة وروعة بيان . وقد أودع اليازجي مقاماته نحواً وبياناً وعروضاً وفقهاً وطباً وفلكاً وأخلاقاً ، وأتى بالغريب العجيب في أساليب التصنيع . والقصص في مقامات اليازجي جاف .

٤ - شعر اليازجي : اليازجي مُقلِّد في شعره ينزع منزع السُّهولة والسَّلاسة والابتعاد عن كل صنعة وتعقيد .



ونشاطه أن يكون خزانة علم ، وأن
يجمع في صدره خلاصة العصور
لغةً ونحواً وبياناً وعروضاً ومنطقاً
وطباً وموسيقى... وأن يكتب في
معظم تلك العلوم ، فيضع في
الصرف «الجمانة في شرح الخزانة»
وفي النحو «نار القرى في شرح
جوف القرا» ، وفي البيان «عقد
الجمان» ، وفي فنّ المقامة «مجمع
البحرين...» وينصرف الى نظم
الشعر فيترك فيه عدّة دواوين ،
نشرتها دار مارون عبود ببيروت في
جزء واحد سنة ١٩٨٣ مع مقدّمة
تحليليّة بقلم مارون عبود.

٣ - مقاماته :

أ - عددها : وضع اليازجي ستين مقامة جمعها في كتاب أسماه «مجمع البحرين» ،
وأراد بالبحرين النظم والنثر. ولئن كانت التسمية قديمة في الأدب العربي فقد قصد
اليازجي بها أن يكون كتابه ديوان الدواوين ، وخزانة علم الأولين والآخرين. قال :
«إنني قد تطفّلتُ على مقام أهل الأدب ، من أئمة العرب ، بتلفيق أحاديث تقتصر من
شبه مقاماتهم على اللقب ، ونسبتُ وقائعها الى ميمون بن خزام ، ورواياتها الى سهيل بن
عبّاد ، وكلاهما هي بن بي مجهول النسبة والبلاد. وقد تحرّيتُ أن أجمع فيها ما استطعتُ
من الفوائد والقواعد ، والغرائب والشوارد ، والأمثال والحكم ، والقصص التي يجري
بها القلم وتسعى القَدَم ، الى غير ذلك من نوادر التراكيب ، ومحاسن الأساليب ،
والأسماء التي لا يُعثر عليها إلا بعد جهد التنقيب والتفتيح».

ب - مضمونها : كانت غاية اليازجي أن يُحاكي الحريري وينجح منهجه مادةً وأسلوباً. فراح على سيرة صاحبه وسيرة الهمداني يجعل من بطله رجل أسفار ورحلات ، ويجعل من مقاماته واحات يقف الرحالة في ظلها ، ويسكب في جوانبها المعارف سكب الماء ، وينثر الفرائد والشوارد مع كل هواء.

١ - الإطار الجغرافي : مسرح المقامات اليازجية هو مسرح قديم بعيد جد البعد عن البيئة اللبنانية وأحوالها. وذلك أن المؤلف عمل على جمع شوارد الألفاظ وغرائب الكلم ، وانتحل الحياة القديمة في مناهجها وأساليبها ، فكان لا بد له والحالة هذه من خلق مسرح ينسجم واللغة والأسلوب ، وإذا المسرح في المقامة البدوية بادية واسعة الأطراف ضربت فيها خيام الأعراب ، وشبت فيها نيران القرى ؛ وفي المقامة الحجازية مدينة يثرب بعد السباسب والبسابس ؛ وفي المقامة الشامية بلد الشام وهو خير مسرح للمعالجة الطبية ؛ وفي المقامة الكوفية بلدة الكوفة مركز الثقافة والعقل ... وهكذا ينتقل بنا اليازجي من بلد الى بلد وفقاً لموضوع دراسته ومادة معالجته. وهكذا فنحن معه في العصور القديمة ، تمر بنا الجاهلية مروراً بدعوة وبداعة ، والحقبة الإسلامية مروراً عقيدة وإيمان ، والحضارة الأموية والعباسية مروراً علم وثقافة وازدهار.

٢ - الإطار الإنساني : الإطار الإنساني في مقامات اليازجي كالذي عرفناه في مقامات الهمداني. وللراوية سهيل بن عباد ما للراوية عيسى بن هشام من عمل التقديم والرواية ، وأساليب التشويق والترويق. وللبطل ميمون بن خزام ما للبطل أبي الفتح الإسكندري من مات جسم في عالم العلم والمعرفة والشعر ، مع تباين ظاهر في الشخصية والميل يتبع ما نجده عند الهمداني واليازجي من تباين في الأخلاق والنزعات. فابن خزام رحالة كالإسكندري ، ولكن رحلات الهمداني في الآفاق ، ورحلات اليازجي بين الكتب والأوراق ، فهو لم يتجول في شتى البلدان العربية ، ولم يعرف غير جانب أو جانبين من جوانب الحياة اللبنانية نفسها ؛ وهكذا فرحلاته الخزامية رحلات مضطعة بعيدة عن التجربة ، وهي من ثم أقل حياة وتأثيراً من رحلات الهمداني الإسكندرية.

وميمون بن خزام أشد امتداداً في المادة العلمية ، وأكثر تفريعاً للصناعة البديعية ، ولكنه دون أبي الفتح الإسكندري مادةً لفظية ، ومقدرةً تعبيرية ، وخفصةً عبارةً ،

وروعة بيان. إنه يبدو لنا خزانة لعلوم الأولين والآخرين، يخوض في كل باب، ويمخر في كل عباب. وهو غير الإسكندري إباءاً، وفلسفة اجتماعية، لا يكاد يتبدل، ولا ينحرف الى بذيء القول والعمل، وهو أميل الى الترضن، أميل الى الحكمة والزهد، وأخذ بأساليب البحث والتحري، وذلك لأنه أرقى مجتمعا، وأحدث عهداً مما حاول اليازجي أن يتخيله.

٣ - المادة العلمية: يصعب على الباحث أن يجمع مادة مجمع البحرين العلمية في كتاب، فكيف به لو أراد جمعها في سطور؟ ذلك أنها غزيرة جداً، توخى اليازجي تكثيفها، والإفاضة فيها إفاضة تضمنت خبرة أجيال المتقدمين والمتأخرين.

أما علم اللغة فقد تناوله الشيخ ناصر نحاو وبيانا وعروضا وفقها، والنحو عالجها في أرجوزة مختصرة أدرجها في المقامة الدمشقية، وعالجها صرفاً في المقامة الأزهرية، ومسائل نحوية في المقامات البغدادية والكوفية والبحرية والسودانية. ومما لا شك فيه أن هذه المقامات، ولا سيما الأزهرية والبغدادية والكوفية منها، أجدر ما تعالج فيه الدقائق النحوية لما عُرِف به الأزهر وبغداد والكوفة من اهتمام للغة وعلومها. المعالجة أسئلة تعجيزية في جزئيات قلما يتنبه لها العلماء، ومن ذلك قوله: «ما الفرق بين التمييز والحال، وبين عطف البيان والإبدال؟ وأين يستوفى حق الإسناد، ولا يخرج بتركيبه عن حكم الافراد؟ وأي الضمير يتردد بين التعريف والتنكير؟...»^١.

والبيان عالج اليازجي في المقامة الإسكندرية كما عالج النحو في المقامة الكوفية، وانحصر كلامه في أنواع الإنشاء، وفي الفرق بين التشبيه والاستعارة، وبين الاستعارة والكناية، أما العروض فقد ذكر منها في المقامة العراقية أبحر الشعر وأجزائها وأنواع القوافي وما يتعلق بها، وأما فقه اللغة فقد تناوله في المقامات الطائفة والجميرية والإسكندرية، واليازجي، شديد الحرص على اللغة، شديد الغيرة على فصاحتها، وقد نهض، في عقب عهد الانحطاط، يناضل في سبيل رقيها، وهي في نظره: «فريدة عقد الألسنة، وهي خلاصة الذهب الأبريز، التي بها ورد الكتاب العزيز، ولها الفنون

العجبية ، والشُّجون الغريبة ، والألفاظ القائمة بين الجزل والرقيق ، والاختصار المؤدي الى المراد من أقرب طريق . وفيها الاستعارات والكنايات والنوادر والآيات ، والبديع الذي هو حلاوتها وحلاها ، والشعر الذي لا نظير له في سواها ، فضلاً عما بها من الحدود والروابط ، والقيود والضوابط ، والإعراب الذي يقود المعاني بزمام ، ويرفع الإيهام عن الأوهام^١ .

وأما علم الطب والصحة فقد ورثه اليازجي عن أبيه ، وبلغ فيه مبلغاً مرموقاً ولهذا عمل على معالجته في مقامتيه الشامية والطبية ، فبين فضيلة الصحة في البدن ، وهاجم الأطباء المتطقلين الجهلة ، وراح ينثر الإرشادات الصحية في حكمة وأثران .

وأما علم الفلك فكان الشيخ ناصيف فيه من المطلعين العارفين ، وقد تركه ميراثاً لابنه الشيخ ابراهيم من بعده ، وترك لنا فيه مقامته الفلكية ، عالج فيها الكواكب السيارة والبروج والمنازل وغير ذلك من متعلقات الفلك ، وعرض لقضية التنجيم بإشارة سريعة ، وكان في كل ذلك مردّد أصداء أكثر مما كان جالي غوامض .

وأما علم الفقه فقد ولجّه اليازجي ولوج المام ، ونثر بعض قضاياه هنا وهناك في غير تحليل ، فحملت المقامة الإسكندرية منه بعض المسائل ، كمسألة الرجل الذي أتلّف شيئاً فلزمه شيئان ، والغاصب الذي لا يُبرأ بالرّدّ على المالك ، وشهادة المسلمين التي تردّ... وهكذا يجول اليازجيّ جولة عناوين ، ويشير الى القضايا إشارة استفهام تدلّ على المعرفة في غير تفصيل ، وعلى سعة العلم في غير تطويل .

وأما علم الأخلاق فقد انصرف إليه الشيخ انصراف ميل وعقيدة ، ولا سيما وقد نزع العلماء والقصاصون في عهده نزعاً اجتماع ، وحاولوا أن يقوموا السيرة ويظهروا السريرة ، ويبعثوا في المجتمع العربي حركة تقديمية تكون الأخلاق في أساسها والفضيلة في قممها . ولليازجيّ في الموضوع كلام طويل يحفل بالروح الصوفية الزهدية ولا يخلو من بعض التشاؤم المظلم .

وفي المقامة الحكيمية قصيدة اليازجي الشهيرة التي نأفس بها ابن دريد صاحب المقصورة ، ومطلعها :

إني لقد جرّبت أنألق ألورى حتى عرفت ما بدأ وما أنأفتى

٤ - المأدة التصنيعية : التصنيع هدف رئيسي من أهداف المقامة نهج فيه اليازجي منهج الحريري ، فأعتمد التسجيع وزناً وقافية ، وأعتمد التصوير بالتشبيه والاستعارة والكناية ، وأعتمد التتميق بالوجه البديعية ولا سيما الجناس ، وكان كتابه معرضاً من معارض الزخرفة البيانية .

وقد أضاف الى ذلك ضرباً من الألاعيب البديعية ، فضمن المقامة العراقية أبياتاً إذا طرأحت أنصافها صارت هجاءً ؛ والمقامة الأزهرية ألغازاً بلفظي العين والنون ولغزاً في اسم الصوت ؛ والمقامة التغلبية أبيات هجاء تتأول بالتصحيف مدحاً ؛ والمقامة الرملية منظومات بديعية من جناسات الخط ؛ والمقامة الرجبية يتأين من الشعر إذا عكست قراءتها تأولا من المديح الى الهجاء ؛ والمقامة البصرية أبياتاً لا تستأيل بالانعكاس ، وبيتين طرأهما مديح ، وعكسها هجاء ؛ والمقامة السروجية وصية ظاهرها يخالف باطنها ؛ والمقامة اللغزية ضرباً من الألغاز ؛ والمقامة الحلية ألواناً من المعانيات والأأاجي ...

٥ - العنصر القصصي : لم يأحد اليازجي عن سنة المقامات في القصص ، بل أتأخذ القصة طريقاً ، وأولأها من أأهم ما يولي الإطار ، فكانت جامدة في حياتها ، مفككة في سردها ، تسير في بطء ثقيل ، وعليها من الصنعة وإيراد الفوائد العلمية واللغوية ما يقطع أوصالها ، ويأفف ماءها . وإن ما فيها من التضمن الشعري ما يزيد سردها ضعفاً ، حتى لتأسب أن بعض مقامات اليازجي قصيدة أو مجموعة من القصائد يتأللها بعض التأ لتأديم الأجزاء ، والتأطيء لأختلف المواد . وهكذا تأمس أن اليازجي أشد إغراقاً في الصنعة من أأمداني ، وأضعف أدباً ، وأأف حياة ، وإن كان أغنى مأدة وأوفر سعة .

٦ - ظلال البيئة : في مقامات اليازجي ظلال لبيئته أشرنا الى بعضها في مكانه ، ولكن تلك الظلال ضئيلة ؛ « وإن أسأليه لتأأخل في صحاري الجزيرة العربية بأكثر ممأ تأأخل أسألب البديع وأأريري ، فمقاماتها يظهر فيها أثر الحضارة العباسية ومأ

اكتسبته اللغة من مقامها في بغداد وعواصم فارس والعراق ، إذ تهذبت ونحوّلت الى ما يشبه التّحَف الدّقيقة ، وأصبحت جزءاً من هذا الفنّ الفخم الذي نراه في واجهات المساجد والبيوتات وسقوفها الأثريّة^١ .

٤ - شعر اليازجي :

جرى اليازجي في شعره على سَنَةِ الأقدمين في الموضوعات والأساليب ، وقلّد المتنبي بنوع خاص ، فأكثر من نظم المديح والرّثاء وملاهما حكمة واعتباراً . وقرّح الشيخ فوّارة ، تأني بالشعر السّهل في هدوء ، وإذا شعره أشبه بشعر أبي العتاهية انسياباً وطبعية ومرونة ، وإذا شعره مُستَساغ في أكثره .

أما مديح اليازجي فقد وُجّه الى عدد كبير من الباشوات والولاة والأدباء والشعراء كما وجّه بنوع خاص الى الأمير بشير . وكان الشيخ يستلهم فيه الكتب القديمة ، ويقلّد ما استطاع التقليد ، ولهذا كان شعره في هذا الباب غريباً عن بيئته ؛ إلا أن تقليده موفق ، ونظمه سلس ينطلق في صفاء وسهولة ومتانة . ومديح اليازجي حافل أحياناً بالتواريخ الشعرية والألاعب اللفظية مما كان علامة العلم والمقدرة لذلك العهد .

وأما الرّثاء فقد تفوّق فيه اليازجي على شعراء عصره ، وجرى فيه على سَنَةِ المتنبي في إرسال الحكم وتصوير زوال الدّنيا .

وحكمة اليازجي منشورة في قصائد مدحه ورثائه ، ومبثوثة هنا وهناك في مختلف مقاماته . وإننا إذا أجلّنا النظر في تلك الحكمة وجدنا أنّ الشاعر يمعن في التأمّل بمصير الإنسان ، ويقف طويلاً أمام الموت الذي يودي بكلّ شيء ، ولا يرضى لأحد حرمة ، ثم يحرض على الزّهد في حطام الدّنيا ويدعو الى القناعة والابتعاد عن البخل والفحشاء ، كما يدعو الى العلم ومصاحبة ذوي المعرفة وذوي النفوس الكبيرة . والشاعر يحول في الموضوعات الاجتماعية المختلفة ويخطّ للإنسان طريقاً من رشاد يستطيع ، إذا سار عليها ، أن يعيش شريفاً وأن يرضي نفسه ولا يتعرّض لسهام اللّوم والشر .

واليازجي يرسل الحكمة محاولاً أن يقلّد فيها من سبقه ولا سيما المتنبي ، ولكن حكمته خالية من تلك الروح الوثابة التي تعصف في شعر أبي الطيّب . وبكتشف حكمة اليازجي جوّ من التشاؤم الذي يضغط على نفس القارئ ، كما يعنورها كثير من السطحيّة التي تجعله يقول ما يعرفه الناس إلّا في ما ندر .

وأسلوب اليازجيّ هو أسلوب السهولة الرائعة ، والسلاسة العذبة ، والكلام البعيد عن كلّ صنعة وتعقيد ، ذاك الكلام الذي يجري مع الطبع ، ويلج النفس والقلب سحرًا وسلاماً فلا تضطرب له أعصاب ولا يخلج له فؤاد .

* * *

هذا هو الشيخ اليازجي الذي استطاع أن يكون الصلة الحقيقيّة بين عهده والعهد العبّاسي ، وأن يمثّل الحركة العلميّة والأدبية في عصره أروع تمثيل وأن يخطّ الطريق واضحة لمن أراد السير في طريق التقدّم ومجاعة الحياة في تطوُّرها وتجديدها .

مصادر ومراجع

- عيسى اسكندر المعلوف : الفرر التاريخيّة في الأسرة اليازجية — دير المخلص ١٩٤٥ .
 الأب نقولا أبو هنا : الشيخ ناصر اليازجي — مجلة المسرة — المجلد ١٥ .
 عيسى ميخائيل سابا : الشيخ ناصر اليازجي : سلسلة «نوايغ الفكر العربي» — دار المعارف بمصر ١٩٥٤ .
 مجلة المكشوف — عدد خاص — رقم ٤٢٦ — ٤٢٧ — سنة ١٩٤٦ .

أحمد فارس الشدياق

(١٨٠١ — ١٨٨٧)

١ - تاريخه : وُلد الشدياق سنة ١٨٠١ في قرية عشقوت ، واستدعاه الأمير حيدر شهاب لينسخ له مخطوطات ووثائق مختلفة ، وفي سنة ١٨٢٦. سافر الى مالطة للتحقق في دراسة المذهب البروتستانتي الذي اعتنقه . وفي سنة ١٨٢٨ سافر من مالطة الى مصر وعمل مترجماً ومصححاً في جريدة «الوقائع المصرية» ثم ما عتَم أن عاد الى الجزيرة فأقبل من المطبعة الإنجيلية . وفي سنة ١٨٤٦ اتصل بباي تونس وحظي بنواله ، ثم سافر الى لندن للإسهام في ترجمة التوراة ، ثم انتقل الى تونس وعيّن مؤسساً للرائد التونسي . وفي نحو ١٨٥٩ غادر تونس الى الآستانة وأنشأ فيها جريدة «الجوائب» ، وتوفي سنة ١٨٨٧ .

٢ - أدبه : للشدياق مؤلفات كثيرة منها «الساق على الساق في ما هو الفاريانق» و«الواسطة في معرفة أحوال مالطة» ، و«كشف المُخْبِئ عن فنون أوربا» ، و«الجاموس على القاموس» .

٣ - الشدياق اللغوي : كان الشدياق رجل المعرفة ، ورجل الحسّ المرهف ، ورجل المقدرة العجيبة ، غوّاصاً على أسرار اللغة .

٤ - الشدياق الأديب : اتّصف الشدياق بطاقات أدبية فريدة فكان سيّد معناه وسيّد تعبيره يسعى الى هدفه في غير تخطيط ، وفي سخر ضاحك وتهكم جارح ، وأسلوبه أسلوب الكتابة الحديثة التي تروق وتنتع .

٥ - الشدياق الصحفي : الشدياق أبو الصحافة العربية ورائدها . إنه واضح أساس الصحافة العربية ، ونبعث روح الحياة في الأدب .

٦ - الشدياق الرحالة : له عدة كتب في وصف رحلاته ودراسة أخلاق الشعوب وعاداتها .

٧ - الشدياق الناقد الاجتماعي : نادى بالحرية الفردية والاجتماعية ، والعدالة الاجتماعية ، وناصر المرأة بكل جرأة وواقعية .

٨ - قيمة أدب الشدياق : انه أبو الحركة التجديدية في القرن السابق ، وقد غلبت الصبغة النقدية الاجتماعية على كتابته ، وأسلوبه يجري مع الطبع ، في كثير من السهولة والاستطراد .

أ - تاريخه :



وُلد فارس الشدياق في حارة الحدث بالقرب من بيروت ، وقد تضاربت الآراء في تعيين تاريخ تلك الولادة ، فذهب بولس مسعد ، إلى أن الشدياق وُلد سنة ١٨٠٥ في قرية عشقوت الكسروانية ، وذهب الدكتور عماد الصلح الى أنه وُلد سنة ١٨٠١ معتمداً في ذلك على رسالتين للشدياق يرى أنهما تفصيان في الأمر وتبعدان كل شك .

نشأ فارس على حب العلم وبرع في صناعة الخط والنسخ ، ونظم الشعر باكراً ، وبعدما

أحمد فارس الشدياق.

توفي أبوه أدرك «أنه لا ملجأ له بعد الله غير كده ، فعكف على النسخة وقد جود ذلك من خطه ، ورقق من فهمه» . واستدعاه الأمير حيدر شهاب لينسخ له مخطوطات ووثائق يعتمد عليها في كتاب كان يُعده وهو الذي طبع باسم «الفرح الحسان في أخبار أبناء الزمان» ، ولكن الفتى لم يلبث طويلاً في عمله هذا ، وقد اتصل بالمبشر البروتستانتي اسحاق برد ، واعتنق مذهبه ، وسافر الى مالطة سنة ١٨٢٦ بعد أن توقف في الإسكندرية نحو شهر . وفي مالطة درس الإنكليزية وتعمق في دراسة المذهب البروتستانتي ، وفي نحو سنة ١٨٢٨ عاد من مالطة الى مصر وعمل مترجماً ومصححاً في جريدة «الوقائع المصرية» ، ثم مدرساً في إحدى المدارس الإنجيلية ، وقد اقترن بفتاة من آل الصولي ثم انتقل معها الى مالطة وعمل مع البعثة البروتستانتية معرباً للنكسب

ومصححاً ومشرفاً على الطبع ، كما عمل مدرّساً للغة العربيّة في مدرسة الحكومة ، وقد حمّله التدريس على وضع عدّة كتب مدرسيّة في النحو والجغرافية وما ذلك ، كما حمّله عمله مع البعثة الإنجيليّة على نظم ترانيم دينيّة جمّعت في كُتُب اسمها «صليب المسيح» .

وبعد رحلة قصيرة الى لبنان زار فيها الشدياق قريته وآثار بعلبك ودمشق عاد الى الجزيرة ، وفي صيف ١٨٤١ قام برحلة قصيرة الى تونس ، وفي سنة ١٨٤٣ أُقيل من المطبعة الإنجيليّة واشتدّت به الحال كما اشتدّت نعمته على المطران اثناسيوس توتونجي الذي أسندت اليه المطبعة الإنجيليّة أمر تصحيح كتبها ، فهجّاه وأقذع في هجائه ، وراحت سلطة لسانه تقذف بالحّم وبكلّ قبيح من القول أو اللفظ . إلّا أنّه اعتذر فيما بعد عند أسقف جبل طارق عمّا بدر منه من سوء تصرّف فأعادته الجمعية الإنجيليّة الى سابق عمله في التعريب والتّصحيح ، ويُنقل الى انكلترة لترجمة كتاب «الصلاة العامّة» ، ثم يعود الى الجزيرة بعد غياب نحو ثمانية أشهر .

وفي سنة ١٨٤٦ سافر الى باريس باي تونس المشير أحمد باشا وتبرّع عند انتهاء زيارته بمبلغ من المال لفقراء مرسلية وباريس ، فما إن سمع الشدياق بخبر هذا التبرّع حتى نظم في الوالي التونسي قصيدة شهيرة عارض فيها قصيدة كعب بن زهير «بانت سعاد» في مدح النبيّ ، وبعث بها الى الباي ، فما كان من هذا الأخير إلّا أن أرسل سفينة حربيّة حملت إليه الشدياق وأسرتّه ، وقد لقي لديه الشدياق تكريماً كما لقي من العيش سعة ووفرة مال .

وما إن عاد الشدياق الى مالطة حتى استدعته جمعية نشر المعارف المسيحيّة في لندن الى الإسهام في ترجمة جديدة للكتاب المقدّس عن لغات الأصل ، فرحّب الشدياق بالمشروع ، وفي أيلول من سنة ١٨٤٨ غادر مالطة مع أسرته الى انكلترة وانصرف الى عمل الترجمة تحت إشراف الدكتور لي ، وقد استغرق العمل نحو سنتين .

ولمّا انتهى عمل الشدياق في انكلترة انتقل الى باريس وعاش فيها عيشة تهتّك واضطراب ، وضاعت به الحال فوجّه رسالة الى الوزير التونسي مصطفى الحازندار يطلب فيها العون في ذلّة وضعة ، ويقبل فيها الأرض خاشعاً أمام «الجناب الرفيع» علّه

يلتفت إليه ويمدّ نحوه يد المساعدة ، وقد استُجيب طلبه ونال بعض ما يُصلح الحال . وفي سنة ١٨٥٣ وضع كتابه « الساق على الساق في ما هو الفاريان » وراح يطلبُ عملاً يوفّر له ما يحتاج إليه من المال في حياته وحياة أسرته ، وإذ لم يتسنّ له ذلك في باريس انتقل إلى لندن وعمل كاتباً في محلات حوّا ، وفي هذه الأثناء وضع كتابه « كشف المحبّا عن فنون أوربّا » .

ومرّ بلندن إذ ذاك خير الدّين التونسيّ ، زعيم الإصلاح ورجل المسؤوليات أيام الباي أحمد والباي محمد الصادق ، فبادر الشدياق إلى استقباله بقصيدة مدحه بها « فوقعت لديه موقعاً حسناً وتكرّم عليه بوظيفة حسنة عنده في تونس » . وهكذا انتقل الشدياق إلى تونس فعُيّن مؤسساً للرّائد التونسي ولكنّه لم يتّجّ من تهجّيات بعض المُنفذين هناك ، ولم يتّجّ له أن يعمل في الرائد التونسي مع أنّه اعتنق الإسلام في سبيل مصلحته وتمشياً مع البيئة التي كان فيها .

وفي نحو سنة ١٨٥٩ غادر تونس إلى الآستانة وأنشأ فيها جريدة « الجوائب » التي ظلّت مدرسة سيّارة في العالم العربيّ كلّهُ إلى سنة ١٨٨٤ يوم صدر مرسوم حكوميّ بتعطيلها .

وفي سنة ١٨٨٧ انحرفت صحّة الشدياق وساءت حاله ، فتوفّي في ٢٠ أيلول من تلك السنة نفسها ، ونُقل جثثانه إلى لبنان — عملاً بوصيّته — ودُفن في مقبرة الحازمية .

٢ - أدبه :

للشدياق مؤلّفات كثيرة لا يزال بعضها مخطوطاً ، وقد تناول فيها موضوعات مختلفة منها اللغة والاجتماع والرحلة والأدب ، ومن أشهرها « الساق على الساق في ما هو الفاريان » وهو سيرة ذاتية تناول فيه الشدياق شطراً من حياته وعلاقاته الاجتماعية ، و« الوسطة في معرفة أحوال مالطة » ؛ و« سرّ اللّيال في القلب والإبدال » ؛ و« كشف المحبّا عن فنون أوربّا » ؛ و« الجاسوس على القاموس » الذي استطال فيه على

الفيروزابادي بأربعة وعشرين نقداً. هذا فضلاً عن مقالاته وأبحاثه في جريدة «الجوائب» وعن ترجمته للكتاب المقدس.

٣ - الشدياق اللغوي :

كان الشدياق من علماء اللغة في عهده ، لا بل كان من ألمهم شهرةً ، ومن أشدهم تأثيراً على تطور اللغة ، وانتقالها من الركاسة الانحطاطية ، إلى الفصاحة والمتانة ، وقد عمل بالترجمة والتعريب والتدريس ووضع المصطلحات للمعاني الحديثة ، كما عمل بالصحافة والنقد على جعل اللغة العربية مرآة للعصر ، ومعبرة عن الحضارة الجديدة ؛ وكان في مقارنته للتونجي واليازجي وغيرهما ، وكان في كتابه «الجاسوس على القاموس» قاموساً حياً ، وبحراً زخاراً ، تنفجر عنده المعاني والنظريات اللغوية وتدق الألفاظ بطريقة تذكرنا بالجاحظ وغيره من جهابذة القول وأرباب الصناعة ؛ وقد يغالي الشدياق في جماله اللفظي ، ولكنه أبدأ رجل المعرفة ، ورجل الحس المرهف . ورجل المقدرة العجيبة التي لا تنهت موقفاً ، ولا تقف عند حد ؛ وكان في كتابه «سرّ الليال في القلب والإبدال» غواصاً على أسرار اللغة يفصل أساليب العرب ويبيّن عجز غيرهم عن مجاراتهم في الميدان ، وهو إن لم يبلغ شأو اليازجي في الموضوع ، فقد كان كالنهر الجاري في تدق الألفاظ ترفده حافظه عجيبة .

٤ - الشدياق الأديب :

١ - كتاب «الساق على الساق في ما هو الفارياق» : قال الدكتور عماد الصلح : «إنّ أحمد فارس الشدياق الأديب بالمعنى الضيق الفني للكلمة موجود في كتاب «الساق على الساق» الذي ألفه في مطلع حياته الأدبية ، فهو الممثل الأفضل للفن الأدبي عنده ... في هذا الكتاب يتجلى أدب الشدياق في أحسن صوره ، ويبرز أسلوبه في أكمل فنونه وأجمل صفاته ، وإن كانت كتبه الباقية لا تقل عنه قيمة وإبداعاً ، ولكنه يقف بينها على أنه أزهّاها وأغناها في تصوير عبقرية الأدبية ...» والساق على الساق هو كتاب سيرته الذاتية ، والفارياق هو الشخصية الأساسية في هذه السيرة ؛ والاسم منحوت من «فارس الشدياق» الأحرف الثلاثة الأولى من الاسم الأول ، والثلاثة الأخيرة من الثاني ، وبهذا الابتكار جاء الكلام بصيغة الغائب ؛ فكان يقول «كان

الفاريق» ، ولا يقول «كنت» فتمكن بهذا الشكل من أن يستخرج ، إن صح التعبير ، من ذاته شخصاً آخر. فأتسم الكلام بالصراحة والحرية^١.

٢ - قيمة أدب الشدياق :

« طاقات عجيبة وواقعية : الشدياق كاتب ذو طاقات فنية كبيرة ؛ فهو مُحَدِّثٌ لا ينضب له معين ، وقصصات ممتع القصص ، ومُحاور لبق ، ومُحلِّلٌ نفساني بعيد النظر ، ونغوي قدير لا تعصيه لفظة مهما تأبَّدت ، ولا يجري على قلمه معنى إلا لفه لفاً وعبر عنه أدقّ تعبير. فهو سيّد معناه وسيّد تعبيره ، يتكلّم في غير حدود ولا سدود ، ويسعى الى هدفه في غير تخطيط ولا قيود. وهو يجري على سجيته في طبيعة جامحة ، وواقعية وقحة ، لا يتأبى السجاسة مهما صَفَّقَتْ ، ولا ينبو قلمه عن القاذورة مهما غُلِظَتْ .

« سخر ضاحك : قال الدكتور عماد الصلح : «جسد (الفاريق) معظم الحالات البشرية والبس المتزمت منها نقائص وسخافات وأبرزها في سخرية ضاحكة أحياناً وفي دعاية مشفقة أحياناً أخرى وفي تهكم تارة ، والغرض المباشر من هذا هو إبراز منازل الضعف عند بعض الناس ، والغرض غير المباشر هو جعل الفضيلة محببة والرديلة كريهة ووضع الأساس لصورة الإنسان الأفضل ، إنسان أكثر حكمة ، وأوفر نضوجاً»^٢.

كنا نتمنى لو يكون هذا الكلام مطابقاً لواقع الشدياق وحقيقة ميوله في الكتابة والحياة الذاتية والاجتماعية ، وهو الذي قابل المُحسنين إليه بالطنع والسخرية ، وحمل سلاح البذاءة للتهجم على أولياء نعمته وعلى منتقديه ومناوئيه ، وكان أولى به ، وهو العالم والأديب ، أن يقيم الاستخفاف مقام التعبير والتعبير ، أو يكتفي بالموقف العلمي الذي يحاور ويُجادل ، ولو كان كالجاحظ في سخره ، أو كفولتير في تهكمه ، وارتفع عن سوقية اللفظ والتصوير ، وعن إحاض السفلة من الناس ، لكان موقفه أدعى الى الإعجاب ، ولكانت «الصورة التي وضعها للإنسان الأفضل» أوفر أخلاقية وأكثر جاذبية .

١ - أحمد فارس الشدياق ص ١٦٦ - ١٦٧ ، ١٧١ .

٢ - أحمد فارس الشدياق ص ١٧٣ .

* أسلوب شيق ثقله اللفظية : وأسلوب الشدياق في كتابته الأدبية هو أسلوب الكتابة الحديثة التي تروق وتُمتع ، ولكن الشدياق ، تطلباً منه لإظهار المعرفة ، وتأثراً بتيارات العصر التي ينساق إليها أحياناً ، يُثقل كلامه بالمعجمية والترادية الجاحمة ، ويكتف سباحة الطبع الشدياقي بالتوريات والكنائيات والإشارات التي تشبه المعميات ، ويُطنب بتقليب الجمل المتعددة على المعنى الواحد الفرد ، ويعتمد أحياناً السجع تظرفاً ، واللفظة الحوشية تظرفاً ، ويحشر الجمل الاعتراضية حشراً ، انساقاً مع روحته التي تنزع التوري بالتصريح ، والتشفي بالتلميح . وفيما أنت تقرأ في أحد فصوله في متعة حقيقية ولذاذة فية إذا أنت تصطدم بجدار من اللفظية الجافة ، والتعبيرية المؤذية ، والسوقية الثابتة ، وإذا أنت آسف ومشمئز ، وإذا المتعة بخار ودُخان .

* حوار موفق : والشدياق في أدبه رجل المرأة ، يجعلها مركز مداره ، وكوكب عشائه وأسحاره . يحلل نفسيته بعمق ودقة ، ويحوم حولها في شغف وهوس ؛ وهو أيضاً رجل الحوار الموفق ، يسوقه في طبيعة وحيوية ، وفي سلامة خلابة ؛ ولو تخلى في قصصه عن ذاته المقلدة والمعقدة ، ولو انصوى في ذاته الفنية بنقاد الجمالية الفن لكان قصاصاً مبدعاً ، وروائياً جليل القدر ، ولو عرف نظام المسرح ومبادئ فنه معرفة عميقة لاستطاع أن يأتي بالرائع ؛ ولكنه كثيراً ما ينقاد للتزوات فضيق فضاء الفن في عواصف نزواته ؛ وهكذا فإنك تقرأ الجاحظ فتلتهم كلامه التهاماً ، وتقرأ فولتير فتفتحهم عالمه اقتحاماً ، وتقرأ الساق على الساق للشدياق ، فتعترضك العقبات ، فتترد ارتداد عياء واشمئزاز ، على ما هنالك من حسنات مُغرية ، ومن فوائد جمّة .

٥ - الشدياق الصحفي :

الشدياق أبو الصحافة العربية ، ورائدها ، وقد ولد أدب المقالة الصحفية على يده . قال محمد كرد علي : « هبط أحمد فارس مدينة الآستانة بعد أن خبر حال أوروبا خبرة زائدة ، وأنشأ جريدة الجوائب التي طار ذكرها في الآفاق . ورزق الخطوة بعلمه ، فكان ملوك الأطراف يهادونه ويمنحونه المنائح . ومن كان يساعده خديوي مصر ، وباي تونس ، وملك باهوبال في الهند حسن صديق خان .

«ولقد كانت جريدة الجوائب مثال الإنشاء العربي البحت ، سارت جميع صُحفنا التي أُسِّست بعدها على نسقها . وقلَّ أن نشأت لنا جريدة في صحَّتها وديابجتها العربية ... وأحمد فارس ، لو أنصفنا ، هو واضع أساس الصحافة العربية ، وباعث روح الحياة في آدابنا بما خلفه من آثاره» .

٦ - الشدياق الرحالة :

مرَّ بنا ما كان من أمر الشدياق في تنقُّله من مكان إلى مكان ، وأنَّ حياته كانت سلسلة من الرحلات التي زار خلالها ، فضلاً عن لبنان ، مصر ، ومالطة ، وانكلترا ، وتونس ، وفرنسة ، والقسطنطينية . وكان في زيارته المختلفة عيناً ترى وترقب ، وأذناً تسمع وتعي ، وعقلاً يفكر ويحلُّل ، وقد دوَّن أخبار تلك الرحلات في كتبه «الساق على الساق في ما هو الفارياق» و«الواسطة في معرفة أحوال مالطة» ، و«كشف المُخبأ عن فنون أوروبا» .

٧ - الشدياق الكاتب الاجتماعي :

شأن الشدياق شأن أكثر الكتاب في القرن التاسع عشر من حيث الاهتمام لحالة أمتهم وبلادهم . فقد فتحوا أعينهم على العالم الأوربي ورأوا ما وصل إليه في مضمار الحضارة والرفق العلمي والاجتماعي ، فيما بلادهم تتخبط في ظلمات الجهل والتخلف ، فأرادوا أن يوقظوا الشرق ويدفعوه الى الأمام ، وعملوا على معالجة أسباب دائه ، فدعوا الى العلم ، والتحرُّر من قيود الجهل والظلم ، وتحرير المرأة من ذلِّ عبوديتها ، ورفع شأن العامل ، والخروج من قفص التقاليد والتحجُّر ، وكان الشدياق من رواد الحركة التحرُّرية ، فنادى بالحرية الفردية والاجتماعية ولكن بشرط أن تخضع المصلحة الخاصة للمصلحة العامة ، أي أن لا تتحوَّل الحرية في يد الأشرار الى عامل فوضى ودمار ، ونادى بالعدالة الاجتماعية التي يزول معها الاستثمار الجشع ، والاحتكار القبيح ، والاستعباد المريع . وهو ، وإن لم يكن من المتمسكين بتعاليم الدين ومبادئه ، فقد رأى أن الدين ضرورة اجتماعية لما فيه من وازع الضمير وربط الإنسان بالفضيلة . والشدياق

نصير المرأة لا نهضة للشرق، في نظره، إلا بنهضتها، فلا بُدَّ من مساواتها بالرجل في العلم والعمل، ولا بُدَّ من إطلاق جناحيها في غير تحديد ولا تقييد.

٨ - قيمة أدب الشدياق :

قال مارون عبّود : « الشدياق هو امرؤ قيس عصره ، وجاحظ زمانه ، وفولتير جيله ، وخليل القرن التاسع عشر . أبو الجريدة العربية المثلى الجامعة للأدب والسياسة والعلم ، وأبو الكتاب في هذه النهضة ... ذهب أحمد رائداً فأصبح مستعمراً وباني دولة أدبية شرقية غربية ... إن أدبنا ككل آداب الأمم المعاصرة نشأ أولاً صحفياً ، والشدياق هو أول من كتب المقالة لجوائبه . فهي الجريدة العربية الأدبية السياسية الأولى ، وإن كان نشأ قبلها صحيفتان ، فمن الظلم أن نحسبه مع الرواد وهو أبو الكتاب الأدبي في القاريق وكشف المحجّب ، وهو أول من وضع لنا المصطلحات الحديثة ... إن الشدياق من كتّاب النضال ، وهو نصير المرأة قبل أن يهب شرقياً لنصرتها ، وهو المطالب بحريتها قبل قاسم أمين^١ .

هكذا يتجلّى لنا الشدياق لغويّاً وصحفيّاً ومؤرخاً وناقداً اجتماعياً من الطبقة الرفيعة ، ويتجلّى لنا أبا الحركة التجديدية في القرن السابق . وقد ساعدته أسفاره واطلاعه على آداب الشعوب وأخلاق الأمم ودفعته الى خلق حركة جديدة في الشرق سواء أكان في الصحافة أم في التأليف أم في الدراسة الاجتماعية أم في الأسلوب الكتابي .

كان الشدياق مؤرخاً وجغرافياً في كتابيه «الواسطة في معرفة أحوال مالطة» و«كشف المحجّب عن فنون أوربا» ، فدرس جغرافية مالطة ، وتاريخها ، وأحوال سكانها الاجتماعية والسياسية ، ولغاتهم ، وعوائلهم ، وآدابهم ، ودوّن ما لفت نظره في جولاته الأوروبية من أحوال السكان وأخلاقهم وعلاقاتهم الاجتماعية ، مقابلاً بعضها بما يجري عند الشرقيين وأهل مالطة .

وكان الشدياق جامعاً في «جوائبه» وفي كتابه «الساق على الساق في ما هو

١ - «رواد النهضة الحديثة» ص ١٥٦ - ١٥٧ .

الفارياق» الذي كتبه في أوربة وضمّنه وصف أسفاره ، وذكر مصائبه التي أمرت شبابه ، وبمجموعة مترادفات في شتى الموضوعات والمعاني ، وإحاطاً قبيحاً .

وقد غلبت الصبغة النقدية الاجتماعية على كتابة الشدياق . فتناول أحوال الشرق والغرب وأقام الموازنات ، وعالج تطرف الناس في عواطفهم وكذبهم وصدوفهم عن معرفة نفوسهم ؛ وعالج قضية الأسرة الشرقية ونادى بحريّة المرأة وبتعليم الشعب والانطلاق من القيود ؛ وعالج السياسة فحارب الإقطاعية محاربة عنيفة ؛ وعالج الدين فهكّم به تهكماً بذيئاً .

أما طريقة الشدياق فنشر للأمراض الاجتماعية في الشرق ومقابلة لها بما شاهده في الغرب ، وتهكّم واستهزاء ، في أسلوب يحري مع الطبيعة ويتوّب من غير تسلسل منطقيّ ، في أسلوب سهل ، بعيد في أكثر الأحيان عن القيود اللفظية والزخارف البديعية والقوالب المصطنعة ، كثير الاستطراد ، شديد التبع للجزئيات .

قال ألبرت حوراني :

« لا نتم كتابات الشدياق عن إدراك سياسي فائق ولا عن عقيدة سياسية ثابتة . ومهما كان نوع الصراع الداخلي المتجلى بوضوح في حياته وفي بعض تلميحات جاءت عرضاً في « الساق » ، فقد كان اهتمامه الواضح باللغة العربية أشدّ من اهتمامه بأي شيء آخر . وهذا هو ، بالواقع ، ما حملَ باي تونس ، ثم السلطان ، على استخدامه . فقد كانت « الجوائب » أول صحيفة عربية ذات شأن : فكانت الأولى في انتشارها حينما كانت اللغة العربية منتشرة ، والأولى أيضاً في شرح أحداث السياسة العالمية . لقد حلّل الشدياق فيها ، بتفصيل ، مجرى الحرب الفرنسية الروسية ، والأزمة الشرقية في السبعينيات ، كما نشر ترجمات لوثائق دبلوماسية مهمة ، وعالج المشاكل الاجتماعية بثقة من قضى سنوات في أوروبا ، وقابل بين الحياة الأوروبية وبين الحياة الشرقية مفضلاً الأولى على الثانية . ذلك لأن الأوروبيين كانوا ، على حدّ قوله ، منظمين ومُجهّدين ومُنْتِجين ، تجمعهم وحدة اجتماعية تعلو على الفوارق في المعتقدات ، ولا يتدخل رؤساؤهم الروحيون ، على الأقل في البلدان البروتستانتية ، تدخلاً زائداً في الشؤون السياسية ، وتشترك نساؤهم اشتراكاً تاماً في حياة المجتمع ، ويرتبي أولادهم تربية

حسنة خلافاً لحالة الإهمال التي يعانيها الأولاد في الشرق. وليس من شك في أن هذا كله هو ما حمل السلطان على استخدامه سياسياً للدفاع، خارج الامبراطورية وداخلها، عن سياسته وعن حقّه بالخلافة. وقد أثار نثره المنطلق بقوة أصداء في أمكنة بعيدة، حتى أن دوتي، وقد كان يحوب أواسط الجزيرة العربية في السبعينيات، لاحظ أن «الجوائب» كانت معروفة أيضاً هناك، لا بل وجد أعداداً منها في بعض بيوت البنّيين القاطنين في بومباي في الهند^١.

مصادر ومراجع

مارون عبّود:

— صقر لبنان — بيروت ١٩٥٣.

— رواد النهضة الحديثة — بيروت ١٩٥٢.

محمد يوسف نجم: أديب القرن التاسع عشر: أحمد فارس الشدياق — بيروت ١٩٤٨.

بولس مسعد: فارس الشدياق — مصر ١٩٣٤.

مجلة المكشوف: العدد ٧٠ (١٩٣٨) — خاص بالشدياق.

مجلة الجمهور: العدد ١٠٢ (١٩٣٨).

مجلة المقتطف: المجلد ٣١: ٦٢٥.

عماد الصلح: أحمد فارس الشدياق آثاره وعصره — بيروت ١٩٨٠.

١ — الفكر العربي في عصر النهضة، ص ١٢٥ — ١٢٧.

رفاعة الطهطاوي - جمال الدين الأفغاني محمد عبده - الكواكبي

أ - رفاعة الطهطاوي :

١ - تاريخه : وُلد في طهطا سنة ١٨٠١ ودرس في الأزهر ثم انتقل إلى الجيش واعظاً وإماماً ، ثم أوفد إلى فرنسا مرشداً وطالب علم ، وعندما عاد إلى بلاده عمل في التدريس والإدارة والترجمة ثم نُقل إلى السودان ، وفي سنة ١٨٥٦ عُيِّن رئيساً للمدرسة الحربية ، ثم ناظرًا لقلم الترجمة . توفي سنة ١٨٧٣ .

٢ - شخصيته : كان رجل العلم ، والأخلاق العالية والتواضع ، والمثابرة .

٣ - أدبه : من أهم آثاره «تخليص الإبريز إلى تلخيص باريز» .

٤ - رسائله الخضرية : يربط السلطة المدنية بالسلطة الدينية ، ويميل إلى التوسط بين الحرية ، ويشدد على التربية وتحرير المرأة من الجهل .

ب - جمال الدين الأفغاني :

١ - تاريخه : هو فارسي أو أفغاني ، تحول في الشرق والغرب ، وناضل في سبيل تحرير الفكر الشرقي من شتى القيود فقبل بالتصديق والتشريد ، وأخيراً بالقتل سنة ١٨٩٧ .

٢ - رسائله الفكرية والإصلاحية : دعا إلى إصلاح الدين بنهضة تجديدية تلائم مقتضيات العصر الحديث ، وإلى إصلاح السياسة بتوحيد الشرق ، وتضامن أبنائه ، وتحطيم الأصنام ، واستبداد الحكام .

ج - محمد عبده :

١ - تاريخه : وُلد في إقليم البحيرة بمصر ودرس في الأزهر وتلمذ لجمال الدين الأفغاني ، ثم درس في دار العلوم وفي مدرسة الألسن ، ورأس تحرير الوقائع المصرية ، وناصر الثورة العربية فُتني من مصر وانتقل إلى لبنان فباريس واشترك في إصدار «العروة الوثقى» ، ثم عاد إلى لبنان ومنها إلى مصر فتولَّى منصب الاستشارة في محكمة الاستئناف ثم منصب الإفتاء ، وتوفي سنة ١٩٠٥ .

٢ - أدبه : من مؤلفاته «رسالة التوحيد» و«الإسلام والنصرانية مع العلم والمدينة» ، وقد دعا إلى تحرير الفكر من قيد التقليد ، وإلى التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب ، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة .

د - عبد الرحمن الكواكبي :

وُلد وتعلّم في حلب وأنشأ فيها جريدتي «الشهباء» و«الاعتدال» ، وسُجن بسبب آرائه الإصلاحية ، ورحل إلى مصر واستقرّ في القاهرة بعد رحلتين زار خلالها البلاد العربية وشرقي أفريقيا وبعض بلاد الهند. توفي سنة ١٩٠٢ .

يُعَدُّ الكواكبي من أعظم رجال الإصلاح الإسلامي . طالب بحريّة القول والعمل ، ومحاربة الجهل ، وتعليم المرأة ، وتنظيم شؤون الأسرة والقضاء على الفساد .

أ - رفاعه الطهطاوي (١٨٠١ - ١٨٧٣)

١ - تاريخه :



رفاعة الطهطاوي .

١ - مولده ونشأته : هو رفاعه بن بدوي بن رافع ، ولد في مدينة طهطا من صعيد مصر سنة ١٨٠١ ، وتنقّل مع والده من مكان إلى مكان ، ولَمَّا توفي ذلك الوالد عاد إلى مسقط رأسه وتلقّى دروسه الأولية في الدين واللغة والنحو ، ثم انتقل إلى القاهرة والتحق بالأزهر وراح يعبّ فيه من شتى العلوم الفقهية واللسانية ، وكان أعظم أساتذته أثراً فيه وفي توجيه حياته الشيخ حسن العطار .

قضى رفاعه في الأزهر ثماني سنوات أظهر فيها شخصيّة بارزة ، وتفوّقاً عظيماً ، ثم راح يُعالج متطلّبات الحياة بالتدريس هنا وهناك .

٢ - في الجيش : في سنة ١٨٢٤ تحوّل عن التعليم في الأزهر فعُيّن واعظاً وإماماً لإحدى فرق الجيش المصري النظامي الذي أسّسه محمد علي ، وكان لهذا الانتقال إلى

البيئة العسكرية تأثير شديد في تطوير حياته ، إذ رسَّخ فيه الاحترام للنظام ، والإحساس بالدفاع عن الوطن ، والصَّلبة في مواجهة الأخطار .

٣- في فرنسا: وفي سنة ١٨٢٦ أوفد محمد علي باشا بعثة إلى فرنسا لدراسة العلوم ، وأراد أن يختار لهم من علماء الأزهر من يذكّرهم بالدين ، ويعظهم ويرشدهم ، وقد وقع الاختيار على الشيخ رفاعة ، ولكن رفاعة لم يتوقّف عند الوعظ والإرشاد ، بل أكبّ على اللغة الفرنسيّة وتضلّع منها ، ثم أكبّ على العلوم المختلفة يجمع منها في صدره ما استطاع إليه سبيلاً ، وأكبّ على المطالعة والترجمة ، وراح يتصل بعلماء فرنسا ، وبحياة الفرنسيين الراقية ، ويجمع من ذلك كله علاجاً لأسباب التخلف والانحطاط في بلاده .

٤- في المعاهد: إدارة وترجمة: عاد رفاعة من باريس حاملاً من الشهادات ما يُحِلُّه في مكان رفيع من التقدير ، فعينه محمد علي في مدرسة الطبّ للترجمة ، فكان ينقل معارف الأساتذة إلى الطلبة ، وعهد إليه بتدريس الترجمة في المدرسة الفرنسيّة الملحقة بمدرسة الطبّ ، وبإدارة المدرسة التجهيزيّة للطب (مدرسة المارستان) ، وفي سنة ١٨٣٣ نُقل إلى مدرسة المدفعية (الطوبجية) ، وفي سنة ١٨٣٥ نُقل إلى نظارة مكتبة المدرسة التجهيزيّة بالقصر العيني ثم إلى مدرسة الألسن التي أنشأها لتخريج المترجمين والمدرّسين ، وكانت مع الأيام مجموعة من الكليات للآداب والحقوق والتجارة .

وفي سنة ١٨٤١ أنشئ ، إلى جانب مدرسة الألسن ، قلم الترجمة وأسندت إدارته أيضاً إلى رفاعة .

٥- في السودان: ظلّ رفاعة ناهضاً بأعباء مدرسة الألسن وما ألحق بها حتى أوائل عهد عباس الأوّل ، فألغيت تلك المدرسة سنة ١٨٤٩ ونُقل رفاعة ناظراً للمدرسة ابتدائية في الخرطوم ، وقد رأى في ذلك نقياً له بسبب آرائه التقدميّة واستجابة من قبل الحكّام لوشايات الحُساد والرجعيّين .

٦- في عهد اسماعيل: عاد رفاعة إلى مصر ، وفي سنة ١٨٥٦ أنشئت المدرسة الحربيّة واختير رفاعة لرئاستها ، وفي سنة ١٨٦١ ألغيت تلك المدرسة وظلّ رئيسها بغير

الوقائع المصرية
جريدة رسمية للحكومة المصرية

(عدد ٣٦ طواحيات) يوم الأربعاء ١٦ رجب سنة ١٣٤٠ - ١٥ مارس سنة ١٩٢٢ (الطبعة الثانية والثلاثون)

الى شعبنا الكريم

* * *

لقد من الله علينا بأن جعل استقلال البلاد من يدنا وأنا لنبتل الى المثل من وجل بأخلص
فكر وأجل المجد من ذلك . ونظن من ملا العالم أن مصر منذ انهم دولة متمتعة بالسادة
والاستقلال وثقت نفوسا لقب صاحب الجلالة ملك مصر لكونت البلادنا ما يتفق مع
استقلالها من مظاهر الشخصية الدولية وأسباب العزة القومية .

وما نحن نشهد الله ونشهد أنفسنا في هذه الساعة العظمى أننا ان نأثر جهدا في السعي بكل
ما أوتينا من قوة وصدق عزم نلحق بلادنا المحبوبة والعمل على اسعاد شعبنا الكريم .

وإنا نؤمل للمثل القدير أن يجعل هذا اليوم فاتحة عصر سعيد يعيد لصرى ذكرى ما فيها المجيد .

مصرى عظيم ١٦ رجب سنة ١٣٤٠ (١٥ مارس سنة ١٩٢٢)
يوم ١٨ سنة ١٩٢٢

فؤاد

عدد خاص من الوقائع بإعلان
استقلال مصر صدر في ١٥
مارس ١٩٢٢ .

منصب الى أن كان عهد اسماعيل فعين عضواً في « قومسيون الديوان » الذي يجتمع كل
يوم للنظر في ما يجب عمله لافتتاح المدارس الجديدة ، كما عين ناظراً لقلم الترجمة الذي
أعيد إنشاؤه ، ومشرفاً على الامتحانات في المدارس المختلفة .

٧ ... في ميدان الصحافة : تولّى رفاعة الطهطاوي الإشراف على « الوقائع المصرية »
الى سنة ١٨٥٠ ، ولما كان عهد اسماعيل أسندت إليه نظارة « مجلة روضة المدارس » ،
وظل فيها الى أن توفي سنة ١٨٧٣ .

٢ - شخصيته :

رفاعة رافع الطهطاوي من ألمع الوجوه التي ظهرت في العالم العربي والتي كان لها
الفضل الأكبر في نهضة مصر ، وفي إطلاق فكرة القومية العربية الحديثة .

١ - كان رجل العلم سعى إليه في كل مكان ، وسعى إليه بنشاط عجيب ، وذكاء حاد ، وسهر مُذِيب ، ونشاطه هذا لفت إليه أنظار أساتذته في مصر وفرنسة ، فأعجبوا به أيما إعجاب ، وأحاطوه برعايتهم ، وأثنوا على تفوقه وسعة آفاقه .

٢ - وكان الى ذلك رجل الجلد والمثابرة ، ورجل الأخلاق العالية من إباء وشَمَم ، ومن ثبات عزم وإقدام وجراءة ، يجعلها كلها في سبيل تقدم أبناء أمته ، وفي خدمة مجتمع لا يريد له إلا السير في موكب الحضارة الجديدة ، والانفتاح على العلم والعالم .

٣ - وكان قبل كل شيء وبعد كل شيء رجل الوطنية الصادقة ، يحبّ وطنه في ماضيه الحضاريّ العجيب ، وفي مستقبل يريده له حافلاً بالعزة والعلم والرفق .

٤ - واشتهر رفاعة بالتواضع الرفيع والوضيع ، والزهد في مظاهر الخلاء ، وعدم الاغترار بزينه الدنيا وزخرفها ؛ ومع هذا الخلق الكريم لم يكن متزمتاً ، بل كان جميل المحضر ، يصف مجلسه أحد تلاميذه بقوله : « كان مجلسه مجلس مسرات وأفراح ، وطالما حضرته وسعت فيه من لطيف المزاح ما يشهد له برقة المزاج ، ويقضي بأن سحره الحلال يقوم للعليل مقام العلاج . »

٥ - أدبه :

لرفاعة الطهطاوي آثار مختلفة الموضوعات ، منها الموضوع ومنها المنقول . أما الآثار الموضوعية فمنها : أرجوزة في علم الكلام ، وبحث في المذاهب الفقهية الأربعة ، ومنظومة في النحو سماها « جمال الأجرومية » ، وشرح للامية العرب ، و« مناهج الألباب المصرية في مناهج الآداب العصرية » ، و« تلخيص الإبريز الى تلخيص باريز » في الاجتماع والسياسة والاقتصاد ، و« المرشد الأمين للبنات والبنين » في التربية .

وأما الآثار المترجمة ففي الجغرافية والفلك ، والتاريخ ، والسياسة ، والاجتماع ، والصحة ، والهندسة ، والقانون ، والطب ، والمعادن ، والفنون الحريّة ، والأدب . من آثار هذا الرجل يتضح لنا أنه كان في نهضة مصر العقل الذي خطط ونظم ، واللسان الذي أرشد وعلم ، والقلم الذي دبج وترجم . كان الشرارة في الهشيم ، والمنارة

في الليل البهيم ، والركن الذي قام عليه البناء العظيم . هو فاتحة المتعلمين والمعلمين ، ورائد الثورة الاجتماعية والثقافية التي ستمشي في تيارها وفود المصلحين من أمثال الأفغاني ، ومحمد عبده ، والكواكبي وغيرهم . وإننا سنتوقف عند كتابته «تخليص الأبريز الى تلخيص باريز» ، و«مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية» . وفيها خلاصة آرائه في السياسة والاجتماع والاقتصاد .

٤ - رفاة ورسالته الحضارية :

عندما سافر رفاة الى أوربة أشار إليه بعض أقاربه ومحبيه ، ولاسيما شيخه حسن العطار ، أن يدون ما يقع له في هذه الرحلة وما يراه ، لكي يكون «نافعاً في كشف القناع ، عن محيا هذه البقاع ، التي يُقال فيها انها عرائس الأقطار ، وليبقى دليلاً يهتدي به الى السفر إليها طلاب الأسفار ...» وقد دون الطهطاوي ما وقع له وما رآه ، وكان بذلك دليلاً وهادياً ، وهكذا سيكون أبداً الدليل والهادي لرفع شأن أمته ووطنه .

في الكتاب مقدمة وست مقالات تنقسم كل مقالة منها الى عدة فصول تكلم فيها رفاة عن هدف البعثة ، وعن البلاد الفرنسية أرضاً وشعباً وحضارة ، وتحدث عن نظمها السياسية ، وملابس أهلها وماكلهم وعاداتهم ، وعلومهم وفنونهم ، كما تحدث عن العوامل التي سمّت بهم الى هذه الدرجة من الرقي ، وأراد بذلك كله أن «يوقظ بكتابته أهل الإسلام ، ويدخل عندهم الرغبة في المعارف المفيدة ، ويولد عندهم محبة تعلم التمدن الإفرنجي ، والترقي في صنائع المعاش» .

والذي يظهر من تلك الرحلة أن الطهطاوي لم يخلع رداء قوميته ، فبعد كل ما في أوربة خيراً ، وينتقص كل ما في بلاده ، بل يحتفظ بشخصيته ، فيعترف بما للغرب من حسنات ، وما تفوق فيه على مصر ، ولكن لا يفوته أن ينتقد سيئاتهم .

وفي «مناهج الألباب المصرية» أراد رفاة أن يساعد بلاده التي أخذت تسير في طريق الرقي ، فيقدم لها النصيح والإرشاد ، وثمرة الخبرة وخلاصة آراء المفكرين «في المنافع العمومية ، التي بها للوطن توسيع دائرة التمدنية ، اقتطفها من ثمار الكتب العربية الياقة ، واجتنبها من مؤلفات الفرنساوية النافعة ، مع ما سنح بالبال ، وأقبل على

الخاطر أحسن إقبال ...» وفي الكتاب مقدّمة بيّن فيها رفاعة أن لكمال التّمدّين والعمران وسيلتين: إحداهما تهذيب الأخلاق بالآداب الدّينية والفضائل الإنسانيّة، والثانية المنافع العموميّة التي تعود بالثروة والغنى وتحسين الحال على الهيئة الاجتماعيّة. وقد فصل ذلك تفصيلاً حافلاً بالرّصانة والعمق، وبأسلوب يقلّ فيه السّجع، ويكثر فيه التّضمين لما يجمعه من كتب الأوّلين والآخرين. وإليك مجمل آراء الطهطاوي في السياسة والاجتماع والاقتصاد كما نثرها أو عالجها هنا وهناك من كتبه ومقالاته:

١ - ينطلق رفاعة من عاطفة دينيّة صادقة ومن تدبّر عميق وواعٍ وبعيد عن التّرمّت، ويرى مع ذلك أن السّلطة الزمانيّة يجب أن تنشق من السّلطة الدّينيّة، وأنهما غير منفصلتين الواحدة عن الأخرى؛ وإذا كان الدّين إلى عهده مصدر التّشريع كان مذهبه أن الشرع وحده هو القسطاس، وأن «لا مدخل للعقل تحسّيناً وتقييحاً... والإمارة إنّما تخلف النبوّة في حراسة الدين وسياسة الدّنيا به». وهو مع ذلك لا يستطيع التّنكّر للعقل الذي رآه سائداً في أوربّة، فيحاول أن يجد مخرجاً لرأيه في كون «الشرع لم يردّ فيه ما يخالف العقل البتّة». وهكذا نرى الرّجل واقفاً بين حضارة أوربيّة يريدّها لبلاده وتراث إسلامي لا يقبل بالشرع بديلاً، ولا يقبل عنه محيداً، فيعمل على التّوفيق بين الدّين والعقل، ويحاول أن يغرس الحضارة الغربيّة الحديثة في حديقة الشرع.

٢ - ورفاعة الطهطاوي يعيل في سياسيّاته إلى النّظم الحرّة التي لا يُقيّدّها غير القانون، وقد ترجم الدستور الفرنسي وقدمه لبني قومه مثلاً أعلى للحكم الذي يتساوى فيه الجميع أمام القانون؛ وهو مع ذلك لا يقول بالليبراليّة التي شاعت في القرن التاسع عشر، بل يتمسّك بالفكرة الإسلاميّة الماثورة، ويرى أن للحاكم السّلطة التنفيذيّة المطلقة التي لا يحدّها منها إلّا الاحترام للشرعية والخضوع لها في ما تدعو إليه من عدلٍ ونزاهة واستقامة.

ورفاعة الطهطاوي يرى، في انفتاحه، أنه من الضروري أن تتكيّف الشريعة وفقاً لمطلّبات الحياة الجديدة، ويعلن أن لا فرق كبير بين مبادئ الشرع الإسلامي ومبادئ «القانون الطبيعي» التي ترتكز إليها قوانين أوربّة الحديثة، وأنه من الممكن تفسير الشريعة الإسلاميّة تفسيراً يتمشّي ومتطلّبات العصر.

٣ - ويرى رفاة الطهطاوي أن الثروة الوطنية ثمرة الفضيلة ، وإن مفتاح الفضيلة التربية ، وإن غاية التربية تكوين الشخصية ، وتنمية الروح الوطنية التي لا يقوم المجتمع المتمدّن بمعزل عنها . وهكذا فهمة التربية عند رفاة تهذيب الخلق ، وتنمية العقول ، وتحسين الادراك ، « والأمة التي حسنت تربية بنينا هي الأمة السعيدة التي يرقى بها الوطن ، ويتبوأ مكانته السامية ، أما سوء التربية فإنه إذا انتشر في أمة أفضى بها الى العدم . » ومما لا بُدّ منه للمجتمع المصري ، في نظره ، تعليم المرأة وتحريرها من الجهل ، وقد يكون رفاة الطهطاوي أول من نادى بتحرير المرأة من ربقة الجهل في العصر الحديث ، إلا أنه لم ينطلق في المطالبة بتحريرها انطلاق قاسم أمين الذي كانت دعوته تجديدية شاملة ، بل ظلّ ضمن نطاق محدود ، فلم يتعرّض للحجاب ، ولم يفسح المجال للمرأة بالاختلاط بالرجال إلا في الحالات الضرورية ، ولم يتنكر لتعدد الزوجات بل أجازها بشرط العدل بينهنّ ، وهكذا كان في موقف وسط بين المتشددين والانقلابيين ، ذلك أن المجتمع العربي لم يكن بعدُ مُهيأً للانقلاب الشامل .

٥ - منزلة رفاة الطهطاوي :

منزلة رفاة الطهطاوي في النهضة الحديثة منزلة الركن ، فقد وعى عصره وعياً تاماً ، وأدرك ما يحتاج إليه إدراكاً صادقاً في غير تهوّر ، وسعى الى النهضة بإخلاص وعلم وتضحية ، ممّا حمل موريس شيمول Maurice Chemoul على أن يكتب عنه في دائرة المعارف الإسلامية : « كان رفاة أحد كبار كتّاب العربية في القرن التاسع عشر ، وقد ارتبط اسمه بالنهضة القيّمة ، في الحركة الأدبية والعلمية للشرق الحديث ، وبفسيّته البهائية وذكائه النادر ، خلّف لنا عملاً جديراً بالتقدير ، يُعالج مختلف النواحي ، من تاريخ وجغرافيا ، وقواعد نحو ، وحقوق ، وأدب ، وطبّ ، وغير ذلك . ولكي نقدر الدور العظيم الذي قام به ، يجب أن نذكر أنه في فجر هذا القرن الأخير ، كان العالم العربيّ يغطّ في شبه نوم ، منفصلاً من أوربا المثقفة بحجاب سميك ، ولم يكن في هذه الظلمة التي تلفّ هذا العصر سوى ضوء خافت يشعّ الأزهر ، ففضل أعماله ونشاطه ، وبمحفّل الفئتين والمترجمين الذين زيّن بهم البلاد ، نمت هذه المعجزة ، بإذاعة العلوم الأوروبية ، وفتح أبواب الشرق للأفكار الحديثة ، وتهذيب عقول

معارضيه ، وإيقاظ حماسهم الرافدة ، وتهيئة المستقبل ، ومن المستطاع تقدير ما تمّ من جهد ، إذا تذكّرنا أنّه قام هو وتلاميذه بترجمة ما يقرب من ألفي كتاب الى العربية والتركية ، ومن ناحية أخرى ، بتوسيع المحيط الضيق للغة القديمة الموروثة بالإحياء ، وبإمدادها بفيض من الألفاظ الجديدة ، فسمح للعقلية العربية بالتجديد ، وأن يعمّ نوره الإسلام في الوقت الحاضر .»

ب - جمال الدين الأفغاني (١٨٣٩ - ١٨٩٧)

أ - تاريخه :



جمال الدين الأفغاني

هو محمد جمال بن صفدر الأفغاني وهو إمام من أئمة الفكر والإصلاح ، قيل إنّه فارسيّ المولد والتربية ، وقال هو انه أفغانيّ وأنه من السّادة ، أي من أحفاد النبي ، ولد في أسعد آباد من أفغانستان ، وقد ظهر للمرّة الأولى شاباً سواحاً يجعل من الشرق كلّهُ وطناً له ، فيزور بلاد العرب ومصر وتركية ويقم في الأفغان وهند وفارس ، ويسافر الى كثير من عواصم أوربة ، ويكتب في الصحف الشرقية ، ويخطب في المحافل والجامع العربية والأوربية ، ويحتكّ

برجال الفكر والعلم والسياسة في كلّ مكان ، ويجمع في صدره من العلم والخبرة ما يضيفه الى عبقرية الفريدة وشخصيته الساحرة . وفي مصر تعرّف بطالب أزهرى اسمه محمد عبده سيكون له نعم النصير . وفي فرنسا عرفه «إرنست رنان» فقال فيه : « قد

١ - نقلاً عن كتاب «رعاة الطهطاوي بك» لأحمد أحمد بدوي ، ص ٣٣٣ - ٣٣٤ .

خُيِّلَ إليَّ من حرية فكره ونبالة شجاعته ، وصراحته ، وأنا أُنحِثُ إليه ، أتتني أرى وجهاً لوجه أحدَ مَنْ عرَّفْتهم من القدماء ، وأتتني أشهد ابن سينا أو ابن رشد ، أو أحد أولئك الملاحدة العظام الذين ظلُّوا خمسة قرون يعملون على تحرير الإنسانية من الإِسار . « وراه الكاتب الفرنسي رُشفور ، فقال فيه : « السيد جمال الدين الأفغاني من سلالة النبي ، ويكاد هو نفسه أن يكون نبياً . »

وما هي إلا سنوات حتَّى هبَّت في وجهه العواصف هنا لأنه ألقي محاضرة كاد يساوي فيها ما بين الفلسفة والنبوة ، وهناك لأنه ، كما قيل ، كان « يتناول السُّعوط يميناه والثورة يُسراه » ، وفي كل مكان لأنه دعا إلى الحرية الفكرية وحارب الاستبداد بجرأة وصراحة ، وجهر بآراء تدكُّ أركان المعتقدات التي رآها سخيصة والتقاليد المهترئة . لقد رُمي بالكفر والزندقة لأنه أراد للشرق أن يشرع أبوابه للنور ، وأضطهد وشُرِّد لأنه كان صاحب فكرة « الوحدة الإسلامية » الثورية ، والراдикаلية الحديثة ، والوطنية التي لا تقبل مساومة ولا تنازلاً عن شيء ، وضُيق عليه لأنه أبى أن يكون في خدمة « أي أوتوقراطي اعتبر مصالحه الخاصة ومصالح الإسلام شيئاً واحداً » ، وأخيراً دُسَّ له السم في الآستانة في ٦ آذار سنة ١٨٩٧ ، فمات شهيد الحرية التي كان أوَّل داعٍ إليها في تاريخ الشرق الحديث .

٢ - أدبه :

لجمال الدين الأفغاني ، فضلاً عن جريدة « العروة الوثقى » التي أنشأها في باريس مع صديقه الشيخ محمد عبده :

١ - إبطال مذهب الدهريين وبيان مفاسدهم وإثبات أن الدين أساس المدنية . (كتبه بالفارسية ثم نُقل إلى العربية) .

٢ - تنمّة البيان في تاريخ الأفغان .

٣ - القضاء والقدر .

٣ - رسالته الفكرية والإصلاحية :

لعلّ جمال الدين الأفغاني أقوى عبقرية عرفها الشرق في القرن التاسع عشر ، وقد جمع الى عبقريته شخصية جذابة ساحرة . وكان يهدف في نشاطه الفكري والاجتماعي الى امرين مهمين : إصلاح الدين وإصلاح السياسة .

١ - أما الدين فكان يدعو الى تصفيته ممّا علق به على مرّ العصور ممّا شوّه حقيقته ، وكان يقول : « إنّ حركتنا الدينية هي اهتمامنا بقلع ما رسخ في عقول العوام والخواص من فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها الحقيقي ، مثل حملهم القضاء والقدر على معنى يوجب أن لا يتحركوا لطلب مجد ولا لتخلص من ذلّ ، ومثل فهمهم لبعض الأحاديث الشريفة الدالة على فساد آخر الزمان فهماً حملهم على عدم السعي وراء الإصلاح والنجاح ... فلا بدّ من بثّ العقائد الدينية الحقّة بين أفراد الجمهور وشرحها لهم على وجهها الصحيح ، لكي تقودهم لما فيه خيرهم ديناً وأخرى . ولا بدّ أيضاً من تهذيب علومنا وتنقيحها ، وتأليف كتب فيها قربة المأخذ لنستعين بها على تقدّمنا ، لا أن نجعلها علماً مقصوداً لذاته . » وهكذا نقل جمال الدين القضية من حركتها القديمة الرجعية الى حركة تجديدية تدعو المسلمين « الى النظر في حالهم ، لتحقيق نهضة دينية تجديدية تلائم مقتضيات العصر الحديث ، وتبين لهم أن الإسلام ، إذا فهم على وجهه الصحيح ، يستطيع أن ينمو نمواً طبيعياً ، وأن يتقدّم تقدّماً يجمع بين المصالح المتحددة للحياة العملية ، وبين المطالب العالية للنفس الإنسانية . » ولا شك أن الأفغاني كان يريد للإسلام مثل الحركة الإصلاحية اللوثرية التي هزّت جسم المسيحية قديماً ودفعتها الى التطور الاجتماعي والفكري ، وكان في الوقت نفسه يريد الردّ على رينان الذي ذهب الى أن الإسلام والعلم لا يتفقان ، وأنه بالتالي لا يتفق والمدنية . وهكذا رأى الأفغاني أنه لا بدّ من ثورة تطويرية في العقل الإسلامي ، وأن البلدان الإسلامية ضعيفة لأن المجتمع الإسلامي فاسد ، وأن فسادهم من فساد فهمه للدين وللمدنية ، وأن الدين ليس فقط عبادة الله بل هو أيضاً « خلق مدنية إنسانية مزدهرة في كل نواحيها . »

٢ - وأما السياسة فقد رأى فيها الأفغاني أن الشرق في تحلّف سببه التفسّخ

والتواكل والتخاذل ، فدعا الى وحدة شرقية تنعم فيها كل دولة بحريتها الكاملة . وكان يقول : « الشرق ! الشرق ! لقد خصصت جهاز دماغي لتشخيص دائه ، وتحري دوائه ، فوجدتُ أقتل أدوائه وما يعترض في سبيل توحيد الكلمة فيه داء انقسام أهليه ، وتشيت آرائهم ، واختلافهم على الاتحاد ، واتحادهم على الاختلاف : فقد اتفقوا على أن لا يتفقوا ! ولا تقوم على هذا لقوم قائمة » .

والذي ينظر في شتى أقوال الأفغاني يدرك أنه رجل الشرق لا يتخلى عن شيء من هذه التزعة ، وأن الجامعة التي كان يدعو إليها هي « الجامعة الشرقية » لا « الجامعة الإسلامية » ، وكان يرى « أن الرابطة الدينية لا تتعارض مع الروابط القومية القائمة بين أقوام يسمون إلى أديان مختلفة : من هنا نداؤه الى المسلمين في مصر والهند قائلًا : « عليكم أن تتقوا الله في ... حسن المعاملة وإحكام الألفة في المنافع الوطنية بينكم وبين أبناء أوطانكم وجيرانكم من أرباب الأديان المختلفة » ، بل من هنا دعوته الى تضامن طبيعي يتعدى الأمة ، هو ذلك التضامن الذي يربط بين جميع شعوب الشرق التي يتهددها التوسع الأوربي . وقد أعلنت « العروة » في عددها الأول أنها موجهة « إلى الشرقيين عموماً وإلى المسلمين خصوصاً » .

بعد هذه النظرة الوجيزة يتضح لنا أن جمال الدين الأفغاني ، بعد الطهطاوي علم من أعلام النهضة الفكرية الحديثة ، وأن الأفغاني وتلاميذه ، كالطهطاوي وتلاميذه ، من الأركان التي قام عليها الفكر العربي المتجدد ، وأن أثره في الثورة العرابية غير مشكوك فيه ، وإن « جمال الدين كان المنبئ الأول للانقلاب الذي حدث بفارس في أواخر القرن الماضي ، وكان لنشاطه أثر في الحركة التي قامت في تركيا منادية بالإصلاح الدستوري ، وبلغت ذروتها في الثورة السياسية التي تزعمها مدحت باشا ، على أنه ما من قطر من أقطار الشرق أثر فيه جمال الدين مثل تأثيره في مصر . استطاع الرجل بخطبه الملهبة أن ينفث في النفوس نزوعاً الى الحرية ورغبة في الاستقلال ... وكان لكلامه أثر عميق في إيقاظ الناس ، وتنبيه المحكومين الى حقوقهم قبل الحاكمين ، فأتجه الناس الى نقد

تصرفات الحكومات ، وأخذت تتضاءل عقيدة سيادة الحاكم وحقه المطلق في التصرف في شؤون الرعية^١ .

وكما دعا جمال الدين الى تحرير الفكر الديني من الجمود وإلى إطلاق العقل في تحرياته وأحكامه ، دعا الى تحرير الكتابة من التعقيد والتقليد وجعلها في خدمة الفكر لا في خدمة الأسلوب .

ج - الشيخ محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥)



الشيخ محمد عبده .

١ - تاريخه :

هو محمد عبده بن حسن خير الله ، من آل التركماني ، مفتي الديار المصرية ومن كبار رجال الإصلاح والتجديد في الإسلام . وُلد في شنرا من قرى الغربية بمصر ، ونشأ في محلة نصر بالبحيرة ، ودرس في طنطا ثم في الأزهر ، وبعد تخرجه عمل في التعليم ، وعندما احتل الإنكليز مصر ناوهم وناصر الثورة العربية فسُجن ثلاثة أشهر

ثم نُفي سنة ١٨٨١ فقدم بيروت وأقام فيها سنة ، ثم سافر الى باريس واشترك مع أستاذه وصديقه جمال الدين الافغاني في إصدار جريدة «العروة الوثقى» ثم عاد الى بيروت فاشتغل بالتدريس والتأليف ، وفي سنة ١٨٨٨ سُمح له بدخول مصر ، فجعل مستشاراً

في محكمة الاستئناف فمُقتباً للديار المصرية ، وظل كذلك الى أن توفي بالاسكندرية سنة ١٩٠٥ .

٢ - أدبه :

للشيخ الإمام محمد عبده مقالات شتى في جريدة « العروة الوثقى » ، وله فضلاً عن ذلك :

- ١ - شرح مطول لمقامات بديع الزمان الهمداني .
- ٢ - شرح نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب .
- ٣ - رسالة التوحيد - مصر ١٣١٥ .
- ٤ - الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية - مصر ١٣٢٣ هـ .
- ٥ - تفسير القرآن الحكيم - مصر ١٣٤٦ هـ .

٣ - رسالته الإصلاحية والتجديدية :

قبل عن محمد عبده : « تلخص رسالة حياته في أمرين : الدعوة الى تحرير الفكر من قيد التقليد ، ثم التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة . وهكذا كان محمد عبده في سلسلة المصلحين المفكرين ولاسيما الطهطاوي والأفغاني ، وكان حكيم مصر والمسلمين في العهد الحديث ، وقد جعل من حياته كلها طريقاً الى الإصلاح الديني والاجتماعي بل عصر حياته كلها كلمة توعية وهداية في سبيل الخير والرفي .

١ - شعر كغيره من المفكرين أن المجتمعات الإسلامية في المخطأ ، وأن لا بُد من النهوض بها لكي تماشي المجتمعات الأوربية التي بلغت من الرقي درجة عالية ، وراح يفكر في الوسيلة الناجعة التي تقود الى الهدف وتُخرج المجتمع الإسلامي من واقعه المتخلف وتقوده الى ما يجب أن يكون عليه .

٢ - رأى محمد عبده أن التطور الجديد الذي بدأ في عهد محمد علي إنما قام على الاقتداء بالغرب ، ونقل الغرب الى المجتمع المصري يتمشى على نظامه ، وقد خرج

بذلك عن النظم التي كانت مستخرجة من الشرع الإسلامي ، وسار في طريق العلمنة ، وهذا أمر غير طبيعي ، والصحيح ، في نظر محمد عبده ، أن ينطلق التطور من مبادئ الإسلام ، وأن يكون مرتبطاً بها ، والإسلام صالح لأن يكون الأساس الخُلقي للمجتمع حديث وراقٍ .

٣ - ولكي يُبين محمد عبده أن الإسلام يمكنه أن يكون مبدأً صالحاً للتغيير راح ينظر فيه نظرة إيمان ونظرة علم ، ويبحث عن إمكان التوفيق بين الإسلام والفكر الحديث ، وعن الطريق المؤدية الى ذلك ، وقد اهتدى إلى أمرٍ وجد فيه ضالته المنشودة ، عندما أعلن أن في الدين أموراً جوهرية عقائدية لا تقبل التغيير ، وفيه الى جانب ذلك أموراً كثيرة غير جوهرية يمكن تغييرها ويمكن الاعتماد على العقل في تفسيرها تفسيراً يتمشى والمدنية الحديثة ومتطلبات الحياة المتطورة . ولئن بلغ المجتمع الإسلامي هذه الدرجة من الفساد لما ذلك إلا بعد أن تعقدت فيه الحياة ، واختلط العرض بالجوهر ، وتضخم التفسير والاجتهاد ، وخرج بذلك الشرع عن صفائه وأصالته ، وضاع في متاهات ضاع معها إمكان التطور ، وفي هذه الأثناء نفضت أوربة عنها غبار الجهل وضباب الجدل الفارغ ، وراحت تكتشف بالعلم أسرار الكون ، وترفع صروح الحضارة الإنسانية الشاملة .

٤ - فعلى المسلمين ، في نظر محمد عبده ، أن يعيدوا تأويل شريعتهم وفقاً لمتطلبات الحياة الحديثة ، وهذا يقتضي وجود علماء وفقهاء كفأة عقلاً ونقلاً لكي يتمكنوا من معالجة التأويل معالجة صحيحة فيها أصالة وفيها تطور وتجديد ورفق . وهذا كان من الأسباب الكبرى التي حملته على إصلاح الأزهر ودفعه إلى الأمام ، وعلى إصلاح نظام التربية الدينية .

٥ - إذن يجب معالجة الإسلام من الداخل وتفسير الشريعة تفسيراً حديثاً ، ونجنباً للخطأ في التفسير والتأويل لا بُدَّ من حكمٍ حكيم ، ومن مفسرٍ عليم ، ولا يكون ذلك إلا بالعودة الى الخلافة الصحيحة كتلك التي حضنت الشريعة في عهدها الأول ، فيكون الخليفة هو المجتهد الأكبر الذي يستطيع استحداث النظم والقوانين التي تسوس الناس في أجواء المساواة والعدالة من غير تمييز ولا تفرق .

٦ - هذه خلاصة آراء الإمام محمد عبده وقد ساقها في رصانة ، ومثانة لغة ، وصدق عاطفة ، وروح إنسانية واسعة ، وحبّة إذا لم تقنع الجميع فقد هزّت المجتمع المصري والعربي ، وراح صداها يتردد في كل مكان .

د - عبد الرحمن الكواكبي (١٨٥٤ - ١٩٠٢)

أ - تاريخه :



الكواكبي

ولد عبد الرحمن الكواكبي بحلب سنة ١٨٥٤ من أب عُرِفَ بالفقه والعلم والذكاء وكرم السجايا ورقة الطباع . توفيت أمه وله من العمر ست سنوات ، فأرسله أبوه الى خالته في أنطاكية فحضنته ثلاث سنوات تعلّم خلالها اللغة التركية ثم عاد إلى حلب ، وفي سنة ١٨٦٤ سافر الى أنطاكية للمرة الثانية والتحق بإحدى مدارسها الخاصة ، وفي السنة التالية عاد الى حلب والتحق بالمدرسة الكواكبية . وما إن بلغ الحادية والعشرين من عمره حتى عمل محرراً في جريدة «فوات» الرسمية التي كانت تصدرها الحكومة

باللغتين العربية والتركية . وفي سنة ١٨٧٨ أنشأ مع صديق له جريدة «الشهباء» وهي أول جريدة عربية صدرت في حلب . فصدر منها خمسة عشر عدداً فقط ، لأن السلطة لم تستطع الصبر على جرأتها وصرامتها في مهاجمة الفساد والمفسدين ، فأغلقتها وفكرت أنها بإغلاقها ستضع حداً للعاصف الذي أثاره هذا الشاب الجريء . وفي سنة ١٨٧٩ أنشأ جريدة أخرى سماها «الاعتدال» ، وقد حصل على امتيازها باسم غيره وأصدرها بالعربية والتركية ، ولكنها لم تسلم من التعطيل أيضاً .

وإذ رأت السلطة أن الرجل لا يرضخ لأسلوب الضغط والترهيب ، عمدت الى الترغيب علّ المناصب تربط عنها لسانه ، فعيّنته سنة ١٨٧٩ عضواً فخرياً في لجنة



المعارف، ثم محرراً للمقاولات، ثم مأموراً للأجراء في ولاية حلب، ثم عضواً فخرياً في لجنة امتحان المحامين، ثم عضواً في محكمة التجارة بولاية حلب. وفي سنة ١٨٨٦ استقال من وظائفه الحكومية وفتح مكتباً للمحاماة وراح يدافع عن أصحاب الحق، ويحلّ عقد المشاكل، ويساعد المظلومين، حتى لُقّب «بأبي الفقراء». وقد اتهم بالتآمر مع الأرمن للقيام بثورة في حلب، فاقنيد إلى المحاكمة فحكم عليه بالإعدام، ثم حكمت محكمة الاستئناف في بيروت ببراءته، وفي سنة ١٨٩٢ عين رئيساً لبلدية حلب، فأصلح ما استطاع إصلاحه من الفساد، وفي سنة ١٨٩٩ سافر إلى القاهرة وراح ينشر مقالاته في الصحف ويعالج الاستبداد بجرأة وعنف، وقد أتيح له إذ ذاك أن يزور عدداً من البلدان العربية. وفي شهر حزيران من سنة ١٩٠٢ وافته المنية في مصر، وقيل انه مات مسموماً من قتل جواسيس السلطان عبد الحميد.

٢ - أدبه :

- ١ - أم القوي : كتاب وضعه عبد الرحمن الكواكبي في سبيل الإصلاح العربي والإسلامي، ونُحِّل فيه مؤتمراً فرض عقده في مكة سنة ١٣١٦ هـ / ١٨٩٨ م وحضرته وفود الدول الإسلامية وعددهم ٢٢ فاضلاً، وعولجت فيه قضايا المسلمين وسبل إصلاح مجتمعاتهم.
- ٢ - طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد : كتاب آخر ضمنه الكواكبي معالجة سياسية للاستبداد ودعوة جريئة إلى الحرية.

٣ - المصلح الاجتماعي :

- ١ - الاسلام والمسلمون : يرى الكواكبي أن العالم الاسلامي في فتور سببه الابتعاد عن الدين، والأخذ بالعقيدة الجبرية، والاكتفاء الشكلي بإسلام الحاكم، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وانعدام التضامن والتعاون، والفرق في ضباب من تعاليم العلماء المدّلسين وغلاة المتصوفين، وتحويل الدين إلى شيء من اللهو والعبث والشكليات، والاختلاف في فهم نواسخ الأحكام، وتضييق الفقهاء على المسلمين أمر العبادات، وميل الحكام والناقدين إلى المنافقين من العلماء...
- عالج الكواكبي هذا الفتور الذي يقضي شيئاً فشيئاً على الدين، فدعا إلى العودة

بالدين الى الإسلام الصحيح ، والرجوع الى الشريعة ، أي الى دين القرآن الصّراح في غير زيادة ولا نقصان ، «أي الدين الذي يقوى على فهمه من القرآن كل إنسان غير مقيد الفكر بتفصّح زيد أو تحكّم عمرو» . وهو يرى أن الدين الإسلامي دين الفطرة الصالحة الحضارية الذي يتوّجه الى الإنسان في غير تعقيد ولا اعوجاج ، ويخاطب عقله وقلبه في غير إكراه ولا إجهاد ، كما يرى أن الدين الإسلامي الذي يدين به المسلمون في عهده ليس دين القرآن ؛ ولهذا وجب الرجوع الى القرآن ، ورفض سفسطات العلماء ، ومقاومة البدع بالتعلّم ، والرجوع الى الخلافة الصّحيحة...

«نادى الكواكبي ، أكثر ما نادى ، بإصلاح الدّين . وقد كانت له رؤية في الدّين ، متميّزة وجريئة ، تنمّ عن ثاقب النظر ، وعلى نحو عزّ نظيره في العصر الذي وُلد فيه . أراد الكواكبي للإسلام أن يتحرّر من الجمود والخُرافة . وأخطر ما في الجمود أن جعل المسلمين ، مسلمين بالتبعية ، بالولادة ، وليسوا مسلمين بالأصالة . فهم يدينون بالإسلام انسياقاً لمن تقدّمهم من الأسلاف .»

وأراد للإسلام أن يتحرّر من الطُّقوس الفارغة التي لا تنفع في تطهير النفوس لافتقادها عنصر الإخلاص . والدين — كل دين — ان هو إلا عبادات جوهرية يدعمها «الإيمان الحق» . وما «القضاء والقدر» ، في نظره ، إلا سعي الإنسان وعمله...

والكواكبي ، النّير الفكر ، يكره التشدّد في الدين ، ويرى فيه ابتعاداً عن روح الإيمان ، فإنما الأديان كلّها لم تشرع إلا للحبّ وجمع القلوب ، لا لبذر الفرقة والبغضاء بين أبناء الإنسانيّة... وهذا قاده الى أن يرى ضرورة التغاضي عن المذاهب الدينيّة المتفرقة .

وفي حربه للجمود والخرافة رسم الخطة العمليّة التي تحقّق إصلاح هذا الخلل ، حين نادى بفتح باب الاجتهاد في الدين ، فإن من حقّ المسلمين ، في كل جيل ، أن يجدّدوا الرأي وكأنّهم هم المسلمون الأوّلون^١...

ب - السياسة : من الدين تطرّق الكواكبي الى السياسة فحاول إصلاح الدولة في

بيئة لم تكن لتسمح له أن يبوح بآرائه حرة طليقة ، وكان فيها الاستبداد يحق بالناس في شتى مدن العرب ؛ ومع ذلك فقد نهض يناسب طغاة السياسة الذين كانوا يحافظون على العهد الحميدي بأشنع صوره ، ويضيقون على الحريات الفردية والاجتماعية ، ويكتمون الأفواه والأقلام ؛ ووقف موقف الرفض والتمرد ، وراح ينشر كتابه « طبائع الاستبداد » فصلاً متتابعة على صفحات « المؤيد » كبرى جرائد مصر والشرق آنذاك ، ويوقظ أبناء الشرق داعياً الى التحرر من نظام الحكم الحميدي الظالم ، ومن كل حكم يصطبغ بصبغة الاستبداد ، فيعدّد أشكال الحكومة المستبدّة ، ويرى أن من أقبح أنواع الاستبداد « استبداد الجاهل على العلم ، واستبداد النفس على العقل ».

ويرى الكواكبي أن الرجوع الى نظام الشورى الذي كان قائماً في فجر الإسلام هو الضمانة الوحيدة للحرية ، وان الاستبداد لا يرتفع ما لم يكن هناك ارتباط في المسؤولية ، فيكون المنفذون مسؤولين لدى المشرعين ، وهؤلاء مسؤولين لدى الأمة ، تلك الأمة التي تعرف أنها صاحبة الشأن كله ، وتعرف أن تراقب ، وأن تتقاضى الحساب .

وهو يرى أن « الإسلامية جعلت أصول حكومتها : الشورى الأرستقراطية ، أي شورى أهل الحل والعقد في الأمة بعقولهم لا بسيوفهم ، وجعل أصول إدارة الأمة التشريع الديمقراطي أي الاشتراكي » . وهو يركّز في كتابه « طبائع الاستبداد » على المطالبة بحكم قائم على الشورى لأن مثل هذا الحكم يحول دون الظلم والاستبداد ، وقد يميل الى عدم الربط بين السلطة السياسية والدين لأن الربط بينها يقود الى خلط يفسد العقيدة عند العامة وعند أرباب السلطان الذين يتسلّحون بالدين لتوسيع نطاق سيطرتهم ... ومع ذلك فهو يدعو الى الخلافة ويراها ضرورة مستمدة من الشرع لا من العقل^١ .

ج - الاجتماع : يُعدّ الكواكبي من أعظم رجال الإصلاح الاجتماعي في العالم العربي الحديث ، وقد ردّ أسباب التردّي في المجتمع العربي الى أمور منها حرمان الأمة من حرية القول والعمل ، والجهل المطلق ولاسيما في عالم المرأة ، وتشويش الإدارة المركزية ،

١ - طالع « الدين والسياسة في فكر الكواكبي » لوفاء الباني في ص ٢٣ - ٢٦ .

وعدم الاهتمام لتعليم المرأة، وفساد الأسرة، وتفسُّخ الأخلاق؛ فراح يعالج هذه الأمراض بصراحة وجرأة وانفتاح.

«لقد أطلَّ عبد الرحمن الكواكبي على الأمة العربيَّة في زمن كانت فيه الحركة الإصلاحية قد أخذت تغدِّ سيرها، بفضل الرائدَيْن جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده. وإذا كان الشيخ محمد عبده هو الذي بدأ بإعطاء هذه الحركة الإصلاحية روحاً حديثة، فإن الكواكبي قد استمرَّ، بمزيد من الإصرار؛ في السير في هذه الطريق، ودفع بأقواله وكتاباتِه هذه الحركة نحو التطوُّر الحديث»^١.

*

مصادر ومراجع

- أحمد أحمد بدوي : رفاة الطهطاوي بك — القاهرة ١٩٥٠ .
- أحمد أمين : زعماء الإصلاح في العصر الحديث — القاهرة ١٩٤٨ — محمد عبده — مجلة الكتاب ١ : ٢٣٢ . — رفاة الطهطاوي — الثقافة ٥ : ٥٩٦ . — الأفغاني — الثقافة ١٩٢ : ٤ .
- أحمد عزت عبد الكريم :
- تاريخ التعليم في عصر محمد علي — القاهرة ١٩٣٨ .
- تاريخ التعليم في مصر — القاهرة ١٩٤٥ .
- جاءك تاجر : حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر — القاهرة .
- عبد الرحمن الرافعي :
- عصر اسماعيل — القاهرة ١٩٣٢ .
- عصر محمد علي — القاهرة ١٩٣٠ .
- عمر طوسون : البعثات العلمية في عهد محمد علي ثم في عهدي عباس الأول وسعيد — الاسكندرية ١٩٣٤ .
- عبد المنعم حمادة : محمد عبده — القاهرة ١٩٤٥ .
- عبدان أمين : اعلام النهضة الحديثة : جمال الدين الأفغاني — مجلة الكتاب ١ : ٦٧٩ .
- عبد الكريم الدجيلي : ذكرى السيد جمال الدين — الرسالة ١١ : ٤٦٠ .
- مصطفى عبد الرازق : السيد جمال الدين الأفغاني — السياسة الأسبوعية ٦٥ : ٤ — ٦ .
- يحيى أحمد الدرديري : السيد جمال الدين الأفغاني — الهلال ٤٣ : ٣٥ .
- محمد صبيح : الشيخ محمد عبده — القاهرة ١٩٤٤ .
- قدري قلعجي : محمد عبده — بيروت .
- مجلة الحديث : عدد خاص بالكواكبي — تشرين الأول ١٩٥٢ .
- سامي الكيالي : عبد الرحمن الكواكبي — مجلة الكتاب ٣ (١٩٤٧) : ٤٣٧ .
- محمد أحمد خلف الله : الكواكبي حياته وآراؤه — القاهرة .
- وفاء الباني قر : الدين والسياسة في فكر الكواكبي — دراسة لنيل الماجستير في الفلسفة — بيروت ١٩٨١ .

شهاب الدين الآلوسي - فرنسيس مَراش - عبدالمهادي الأبياري يوسف الأسير - إبراهيم الأحمد - عبدالله نديم

- أ - شهاب الدين الآلوسي : أديب عراقي وُلد في بغداد سنة ١٨٠٢ وتوفي سنة ١٨٥٤ . من آثاره رحلته التي سمّاها « غرائب الاغتراب ونزهة الألباب في الذهاب والإقامة والإياب » .
- ب - فرنسيس فتح الله مَراش : أديب سوري وُلد في حلب سنة ١٨٣٦ ، وتوفي سنة ١٨٧٣ . من رجال الفكر والاجتماع ، أشهر آثاره « غابة الحق » و« مشهد الأحوال » .
- ج - عبدالمهادي نجاة الأبياري : أديب مصري وُلد في أيار سنة ١٨٢١ وتوفي سنة ١٨٨٨ . من آثاره « الوسائل الأدبية في الرسائل الأحمدية » .
- د - يوسف الأسير : أديب لبناني وُلد في صيدا سنة ١٨١٥ وتوفي سنة ١٨٩٠ . عالم في الفقه واللغة من آثاره « راض الفرائض » .
- هـ - إبراهيم الأحمد : أديب لبناني وُلد في طرابلس سنة ١٨٢٦ وتوفي سنة ١٨٩١ . كان عضواً في مجلس المعارف . من آثاره « فوائد الأطواق في أجياد محاسن الأخلاق » .
- و - عبدالله نديم : أديب مصري وُلد في الاسكندرية سنة ١٨٤٥ وتوفي سنة ١٨٩٦ . رجل حركي ناصر الثورة العرابية وكان له أثر فعال في تحسين الإنشاء . من آثاره « الساق على الساق في مكابدة المشاق » و« كان ويكون » .

أ - شهاب الدين محمود الآلوسي (١٨٠٢ - ١٨٥٤)

وُلد بجانب الكرخ من بغداد وقرأ العلوم على والده وعلماء بغداد والموصل ودمشق وبيروت والآستانة . ثم اشتغل بالتدريس والتأليف وكان الطلاب يقصدونه من كل صقع . أوقع الوحشة والسُّعة به لدى الوالي فساعت أحواله وسافر إلى الآستانة في عهد

السلطان عبد المجيد، وناصره فيها شيخ الإسلام عارف حكمت وقدمه لأولي الأمر فعطفوا عليه إلى أن توفي سنة ١٨٥٤ تاركاً وراءه عدداً كبيراً من المؤلفات نذكر منها «غرائب الاغتراب ونزهة الألباب في الذهاب والإقامة والاياب» (تفصيل لرحلته إلى الاسكندرية)، و«نشوة الشمول في السفر إلى اسلامبول». والآلوسي عالم وفقه، ورحالة في رحلاته وصف لحالة تركية في القرن الثامن عشر وبدء القرن التاسع عشر، وهو إلى ذلك من أصحاب المقامات على نمط الحريري.

ب - فرنسيس فتح الله مرّاش (١٨٣٦ - ١٨٧٣) :

ولد بحلب وأكسب على العلوم واللغات يُحَصِّل منها مايسطيع تحصيله، وفي سنة ١٨٦٧ سافر إلى فرنسا ونال فيها الإجازة في الطب ولما عاد إلى حلب كُتِبَ بصره فراح يُعَلِّم كُتِبَ على أصدقائه وأهل معرفته إلى أن توفي سنة ١٨٧٣. من مؤلفاته «شهادة الطبيعة في وجود الله والشرعة»، و«مشهد الأحوال»، و«غابة الحق». فرنسيس مرّاش «كاتب مبادئ وتفكير، ذو خيال مُبدع؛ عبارته رقيقة، سهلة، ركيكة أحياناً، غزير الأفكار، خطابي اللهجة، ولعله أسبق كتّاب العصر للمطالبة بإنشاء دنيا اجتماعية جديدة يسودها السلام ويرفّ عليها الوثام، وذلك في كتابه «غابة الحق».

ج - عبد الهادي نجا الأبياري (١٨٢١ - ١٨٨٨) :

وُلِدَ في قرية أيار في إقليم الغربية بمصر السفلى، والتحق بالأزهر مدّة طويلة. وحصل من العلوم ما أذاع ذكره في الناس، فعهد إليه الخديو عباس بتأديب أولاده، وكان يدرّس في الأزهر، ولما تولى توفيق باشا الحكم قرّبه إليه وجعله إمام المعية ومُفتيها. وقد توفي سنة ١٨٨٨. من مؤلفاته «الوسائل الأدبية في الوسائل الأحديّة». وهي مكاتبات جرت بينه وبين ابراهيم الأحذب في موضوعات لغوية. يُعدُّ الأبياري من رواد النهضة الحديثة، وكان حجّة في اللغة العربية وعلومها.

د - يوسف الأسير (١٨١٥ - ١٨٩٠) :

هو من مواليد صيدا. تلقّى فيها علومه الأولى ثم انتقل إلى الأزهر بمصر حيث مكث سبع سنوات في الدراسة والتحصيل، وبعدها عاد إلى بلاده واستقرّ في بيروت حيث

تولّى رئاسة محكمتها الشرعيّة ، ثمّ وظيفة المدعي العام في جبل لبنان . ثمّ استدعي إلى الآستانة رئيساً للمصحّحين في نظارة المعارف واستاذاً للعربيّة في دار المعلمين الكبرى . وأخيراً عاد إلى بيروت فأُسّس تحرير « ثمرات الفنون » ، وتوفي سنة ١٨٩٠ تاركاً مؤلّفات قيّمة منها « رائض الفرائض » في الميراث ، و « إرشاد الوري لنار القرى » وهو نقد لكتاب ناصيف اليازجي في النحو « نار القرى في شرح جوف الفرا » . ويوسف الأسير يمتاز بسعة الرواية ، والتضلع من العلوم العربيّة والفقهية ، والدقّة في العبارة .

هـ — إبراهيم الأحمد (١٨٢٦ — ١٨٩١) :

ولد في طرابلس وتلقّى فيها علومه ثمّ درّس في مدارسها ، وبعد تنقّلات مختلفة استقرّ في بيروت وكان رئيس كتابة المحكمة الشرعيّة ، ورئيس تحرير « ثمرات الفنون » ثمّ عضواً في مجلس المعارف . وقد توفي سنة ١٨٩١ تاركاً آثاراً جليّة منها « كشف المعالي والبيان عن رسائل بديع الزمان » ، و « فرائد الأطواق في أجياد محاسن الأخلاق » جارٍ فيه مقامات الرّمحشريّ . وله نحو عشرين رواية تمثليّة منها « المعتمد بن عبّاد » ، و « ولادة بنت المستكفي مع الوزير ابن زيدون » ، و « مجنون ليلي » ، و « الاسكندر المقدوني » ، والأحمد فقيه وعالم ، وكاتب بليغ ، وركن من أركان اللغة والأدب .

و — عبد الله نديم (١٨٤٥ — ١٨٩٦) :

وُلد في الاسكندرية وأنشأ فيها الجمعية الخيريّة الإسلاميّة ، وكتب مقالات كثيرة في جريدتي « المحروسة » و « العصر الجديد » ثمّ أصدر جريدة « التنكيث والتبكيث » وبعد مدّة استعاض عنها بجريدة سمّاها « الطائف » وأعلن بها جهاده الوطنيّ . وكان من خطباء الثورة العرابيّة فقبض عليه وسُجن ، ثمّ انتقل إلى القاهرة وأنشأ مجلّة « الاستاذ » ، فنفاه الإنكليز فخرج إلى يافا فالآستانة حيث عيّن في ديوان المعارف ثمّ مفتشاً للمطبوعات في الباب العالي واستمرّ إلى أن توفي سنة ١٨٩٦ . من مؤلّفاته « الساق على الساق في مكابدة المشاق » ، و « النحلة في الرحلة » ، و « كان ويكون » . كان أسلوبه في شبابه الأول أسلوباً قديماً يلتزم فيه السجع والمحسنات البديعيّة الأخرى ، ولكنه عندما

اتصل بالصحافة وكتب لها انتقل من هذا الأسلوب الى الأسلوب السهل والسلس .
وكان له أثر فعال في تحسين الإنشاء في ذلك العصر .

مصادر ومراجع

- خبر الدين الزركلي : الاعلام .
جرجي زيدان : تراجم مشاهير الشرق — مجموعة دار الجليل — بيروت : ١٥ .
رثيف خوري : فرنسيس فتح الله مَراش — الطريق ٣ : ٥ .
نجيب مكربنة : فرنسيس المَراش : سيرته وآثاره — الشهاب ١٠٠ : ١٥ — ٢٠ .



المعلم بطرس البستاني - قاسم أمين

أ - بطرس البستاني :

١ - تاريخه : وُلد المعلم بطرس البستاني سنة ١٨١٩ ودرس ودرس في مدرسة عين ورة : وفي سنة ١٨٤٠ عمل مترجماً مع الإنكليز ثم معرباً مع الأميركان ، وعقب سنة ١٨٦٠ أنشأ «نفيير سوريا» و«المدرسة الوطنية» ، وأصدر مجلة «الجنان» ، وفي سنة ١٨٧٠ أكتب على وضع المعجم «محيط المحيط» ، ثم في سنة ١٨٧٥ أخذ في وضع موسوعته «دائرة المعارف» .

٢ - أدبه : للبستاني مؤلفات في الأصول ، واللغة ، والحساب ، والتاريخ ، والأدب ، والاجتماع . وقد دعا الى تعليم المرأة لأنها ذات قابلية للعلم ، ولأن في علمها فائدة لها ولأولادها وللمجتمع ، وفي جهلها ضرراً كبيراً لها ولجميعها .

ب - قاسم أمين :

وُلد في ضواحي القاهرة ودرس في الاسكندرية ثم في القاهرة ، وأتم دراسة الحقوق في موبليه بفرنسة . وفي سنة ١٨٨٥ عُيِّن وكيلًا للنياحة العامة ثم مستشاراً بمحكمة الاستئناف . وقد توفي في القاهرة سنة ١٩٠٨ .

هو من مشاهير رجال الاجتماع في الشرق ، طالب بتحرير المرأة من الجهل والحجاب والسجن ، وبتنظيم الزواج والطلاق .

أ المعلم بطرس البستاني (١٨١٩ — ١٨٨٣)

أ - تاريخه :

١ - مولده وتحصيله العلم : وُلد بطرس بن بولس البستاني في قرية الدببة (بحوار دير القمر) سنة ١٨١٩ ، ونشأ ينهل العلم كما ينهل غيره من طلاب القرى لذلك العهد ، تحت السنديانة اللبنانية التي تقوم إلى جانب باب الكنيسة ، وإذ أبدى بطرس من الرغبة



*

المعلم

بطرس

البستاني.

والذكاء في طلب العلم ما تفوق به على أقرانه ، أرسله المطران عبد الله البستاني الى مدرسة عين ورقة حيث حصل ثقافة واسعة في علوم اللغة العربية ، وفي التاريخ والجغرافية والحساب ، وفي المنطق والفلسفة والآهوت ، وحيث درس من اللغات السريانية والآتينيّة والإيطالية . ولما أتمّ دراسته راح يدرّس في عين ورقة ويعمل على تحصيل مبادئ اللغة الإنكليزيّة .

٢ - المترجم والمدرّس والمعرّب : وفي سنة ١٨٤٠ انتقل الى بيروت واتصل بالإنكليز الذين قدموا فيمن قدم الى لبنان من الدول الأوروبيّة لمقاومة ابراهيم باشا المصري ، فاتخذة الإنكليز ترجيحاً لهم ؛ ثم اتصل بالمرسلين الأميركيّين وعمل معهم على تعريب بعض الكتب وانتحل مذهبهم البروتسطيني . وفي سنة ١٨٤٦ استعان به صديقه الدكتور كرنيليوس فاندليك للتدريس في المدرسة التي أنشأها في عبيه . وقد وضع إذ ذاك كتابين في الحساب وفي النحو هما « كشف الحجاب في علم الحساب » و « بلوغ الأرب في نحو

٤ - قصّة روبنسون كروزبي : أو التحفة البستانية في الأسفار الكروزية.

٥ - شرح ديوان المتنبي.

٦ - في الاجتماع :

١ - تعليم النساء.

٢ - الهيئة الاجتماعية والمقابلة بين العوائد العربية والفرنجية.

٣ - البستاني وتعليم المرأة :

رأى البستاني في مشكلة المرأة الشرقية أشدّ عقبة في وجه التقدم الشرقي ، وقد ناضل في سبيل تحريرها من الجهل بلسانه وقلمه ، وكان رسولها في المحافل والمجالس يعمل على رفع مستوى الأمة برفع مستوى الأمومة .

نظر البستاني إلى مكان المرأة في المجتمع وإذا هي ربة البيت ومربية النشء ، بل هي «أم الخليفة» جعلها الله عنصراً جوهرياً من عناصر البيت والعيلة . فهي «لم تُخلق لكي تكون في العالم بمنزلة صنم يُعبد ، أو أداة زينة تحفظ في البيت لأجل الفرجة ، ولا لأن تنصرف أوقاتها بالبطالة وكثرة الكلام والهذيان ، أو تقتصر من الأعمال على كناسة البيت مثلاً...» ولما كان هذا مركزها كان من الواجب أن تكون نوراً يهدي ، ولكي تكون نوراً يجب أن تتعلم . ولا يكتفي البستاني بالنظر إلى وظيفة المرأة بل ينظر إلى طبيعتها أيضاً وإذا هي طبيعة ذات قابلية أساسية للعلم وتحصيل الثقافة . ومن ثمّ يستخلص البستاني أن تعليم المرأة واجب اجتماعي ، وأن تعليمها عنصر أساسي من عناصر الرقي والتقدم .

إلا أن البستاني في مناصرته للمرأة لا يتخطى حدود المعقول ولا يرى أن تحل المرأة محلّ الرجل في أعمال المجتمع ، فهي في نظره وفي نظر العقل للبيت والعيلة ، هي الأم وهي المربية ، وهي بحاجة إلى كل ما يساعدها مساعدة فعّالة للقيام بوظيفتها وعملها أحسن قيام . والعلم يضيف إلى الحسنات السابقة في المرأة أنه يُلين طبيعتها ، ويوقظ ضميرها ، ويقوم إرادتها وعواطفها الأدبية ، ويساعدها على أن تكون الزوجة الحقة التي تكمل ما ينقص زوجها من الصفات ، وعلى أن تكون الأم الحقة التي تعرف أساليب التربية ، وعلى أن تكون عاملاً قوياً في بناء المجتمع الأمثل .

خطاب طويل ألقاه في ١٤ كانون الأول سنة ١٨٤٩ ، و«الهيئة الاجتماعية والمقابلة بين العوائد العربية والافرنجية» وهو خطاب ألقاه سنة ١٨٦٩ . وإننا سنتوقف عند هذه الناحية الاجتماعية ، لنظهر آراء الرجل في هذا الموضوع الذي خصّه بحياته كلها كما خصّه بجميع مشاريعه في شتى ميادين العمل .

٢ - أدبه :

كان المعلم بطرس البستاني من أغزر أبناء زمانه عطاءً فكرياً وعلمياً وأديباً وإليك ما وصل إلينا من مؤلفاته غير الصحفية :

أ - في الأصول :

- ١ - مصباح الطالب في بحث المطالب : شرح «بحث المطالب» للمطران جرمانوس فرحات .
- ٢ - مفتاح المصباح (في الصرف والنحو) .

ب - في اللغة :

- ١ - محيط المحيط (في جزأين) وهو أول قاموس حديث في اللغة العربية .
- ٢ - قطر المحيط ، وهو مختصر للسابق .

ج - في الموسوعية :

دائرة المعارف ، وهي قاموس عام لكل فنٍّ ومطلب .

د - في الحساب :

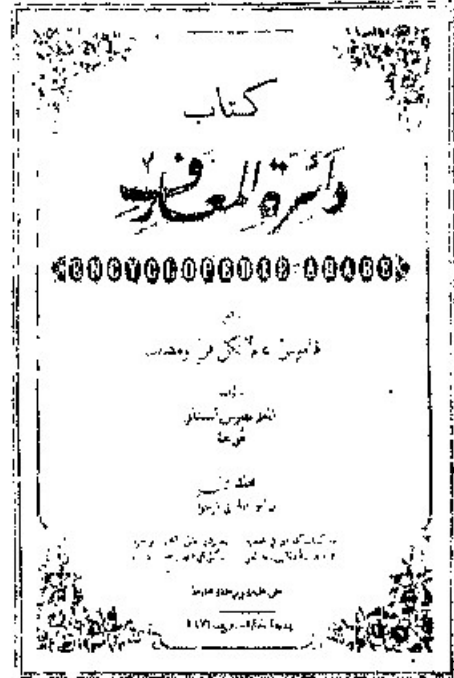
- ١ - كشف الحجاب في علم الحساب .
- ٢ - روضة التاجر في مبادئ مسك الدفاتر .

هـ - في التاريخ والأدب وما إليها :

- ١ - تاريخ نابوليون الأول امبراطور فرنسا .
- ٢ - آداب العرب ، وهي خطبة القاها سنة ١٨٦٩ ويّين فيها أسباب انحطاط الأدب .
- ٣ - ترجمة النوراة ، وقد اشترك فيها ، وهي الترجمة المعروفة بالترجمة الأميركية .

تلك آراء البستاني ، وهو يسوقها في هدوء وحرصانة ، ويدعمها بالحجج القوية التي يقيمها على أساس فلسفي علمي اجتماعي ، في لغة سهلة وعبارة منسجمة ، وهو في خاتمة دراسته يعلل النتيجة العامة بقوله :

«فالناتج مما تقدم أنه إذا حاولنا إصلاح قوم ، يكون تعليم النساء هو الدرجة الأولى من السلم ، والباب الذي يجب أن يُفتح أولاً ، مبتدئين في ذلك من صفرهن».



وأما الذين يتركون النساء وراءهم ويأخذون في تعليم الصبيان أو الشبان ، فهم كمن يضع رجلاً على الأرض وأخرى في السحاب . وتراهم في الغالب يقصرون في مطلوبهم ، وبالكاد يكون جهدهم كافياً لإصلاح ما تفسده النساء . لأنهم كلما بنوا صومعة تراهن يهدمن برجاً ، وكلما رفعوهم درجة تراهن يحططنهم درجات . فإن ما يبنيه الرجل في مائة عام قد تهدمه المرأة في سنة واحدة . وكل ذلك قد ثبت بالتجربة والاختبار ، وعلى من شك تحقيق النظر وجودة الاعتبار . ولعل ما قلته كافٍ للدخول في موضوع كهذا لم تجر فيه أقلام أسلافي من أهالي البلاد . وخلاصته : وجوب تعليم النساء بناءً على أن التي تهز السرير يمينها هي التي تحرك المسكونة بذراعها».

٤ - البستاني رجل الموقف العربي الأصيل :

لم تقتصر أبحاث البستاني الاجتماعية على قضية المرأة وتعليمها ، بل تجاوزتها الى موضوعات مختلفة كانت شغل المفكرين الشاغل في الامبراطورية العثمانية لذلك العهد .



فمنذ سنة ١٨٦٠ انتشرت في البلاد فكرة الإصلاح ، ونافح في سبيلها نخبة من الموظفين والضباط والأماتدة ممن استهوتهم الحضارة الأوربية ، ورأوا في تطبيق مبادئها خلاصاً لهذا العالم الشرقي الغارق في ظلمة الجهل والتخلف ، فراح اسماعيل باشا في مصر ، وخير الدين في تونس ، ورفاعة رافع الطهطاوي في مصر أيضاً يدعون الى الإصلاح ، وطالب الطهطاوي العلماء بتفسير الشريعة الإسلامية على ضوء الحاجات الحديثة ، وأن يتعرفوا في سبيل ذلك على العالم الحديث ويدرسوا علومه دراسة عميقة وواسعة ، ورفع

الطهطاوي صوته بجرأة وصراحة داعياً الى إصلاح المدارس وسبيل التعليم ، وبين أن التربية مفتاح الفضيلة ، وان غاية التربية تكوين الشخصية لا مجرد حشد المعلومات في ذهن الطالب . وراحت حركة الإصلاح تزداد اتساعاً ، وراح المثقفون يزدادون عدداً ، والاتصال بأوربية والحضارة الأوربية يزداد عمقاً . في تلك الأثناء ظهر المعلم بطرس البستاني ووقف موقفاً عربياً أصيلاً ، ولعله « أول كاتب تكلم باعتزاز عن «دمه العربي»^١ . وكان مقتنعاً بعروبة جميع الناطقين بالضاد من مسيحيين ومسلمين^٢ ، وعندما أنشأ «المدرسة الوطنية» أعار دراسة اللغة العربية والعلوم الحديثة فيها عناية خاصة ، كما دعا الى التنقّف بثقافة الغرب والاطّلاع على أسباب مدنيته ، وتلك ، في نظره ، هي الطريقة الوحيدة لنهوض الشرق الأدنى ، إلا أنه يرفض ، في ذلك ، التقليد الأعمى ، في غير تمييز ولا اختيار . «ومن الخطأ الاعتقاد أن في إمكان العرب أن يعثروا في تراثهم على كل ما يحتاجون إليه لنهضتهم ، لكنهم إذا ما أرادوا أن يتعلّموا ، فما مكث

١ البرت حوراني : الفكر العربي في عصر النهضة ، ص ١٢٩ .

٢ طالع نفس المرجع ، ص ١٢٨ .

فيه الإفراج السنين العديدة والمُدد المديدة يمكن العرب أن يكسبوه في أقرب زمان مع غاية الاتقان والإحكام^١. لكن ماذا يجب على الشرق الأدنى أنخذله عن أوروبة ! على هذا السؤال يجيب البستاني بقوله : إن أول ما يجب تعلّمه إنّما هو أهمية الوحدة الوطنية وواجب جميع الذين يعيشون في البلد الواحد أن يتعاونوا على قدم مساواة ، وذلك ، أولاً ، بالاعتراف بأن جميع الأديان وإحدة أصلاً ، فكلّنا ، شرقيين وغربيين ، ذوو طبيعة واحدة بشرية ، وكلّنا منحدرون من الأيوين الأولين ، وكلّنا نعبد الإله الواحد^٢ ... ثانياً بتشجيع نمو الشعور الوطني : فحبّ الوطن من الإيمان ... وإذا كان على سوريا أن تتمدّن ، فعلى حكامها أن يقوموا بأمرين : الأول إصدار قوانين عادلة متساوية تتفق مع روح العصر ، وتلتفت الى الموضوع لا إلى الأشخاص ، وتقوم على الفصل بين حقلي الدين والدنيا ، والثاني إنشاء تربية باللغة العربية ، إذ يجب أن لا تصبح سوريا بابل لغات كما هي بابل اديان^٣. أما غرض هذه التربية فيجب أن يكون فهم العلوم الحديثة وما يمكن وراءها من طريقة عقلية دقيقة للتفكير والعمل . وعند هذه النقطة يلتقي جانباً نشاط البستاني في هدف موحد : تغيير عقول الناطقين بالضاد وقرائنها وجعلهم مواطنين في عالم العلم والاختراع الحديث ، وذلك بجعل اللغة العربية أداة صالحة للتعبير عن المفاهيم الحديثة . وهو في هذا السبيل وضع موسوعته الكبرى التي كانت أهم ما قام به^٤.

وهكذا كان بطرس البستاني معلّم جيله ، له من المعلم وُضوح الفكرة وسهولة الأداء ، وامتلاك زمام المادة ، واطمئنان الخبرة الرشيدة ؛ وله من المفكر عمق التفكير ، وسداد المنطق ، وبلاغة الحجّة ، واستقامة الرأي ؛ وله من الصحفي جرأة المذهب ، وصراحة القول وطبيعة التعبير ؛ وله من رجل الأخلاق سمو الروحانيّة ، والسيطرة على النفس ، وهُدوء السّرب ؛ وله على كل حال تلك الخدمة الجليلة التي قدّمها لأبناء البلاد ، والتي كان فيها من أعظم رواد النهضة الحديثة .

١ خطبة في آداب العرب ، ص ٢٥ .

٢ بطرس البستاني : خطاب في الهيئة الاجتماعية ، ص ٣١ .

٣ بطرس البستاني : نفي سوريا ، العدد ٧ (١٩ تشرين الثاني ١٨٦٠) .

٤ البرت حوراني : الفكر العربي في عصر النهضة ، ص ١٢٨ — ١٣٠ .

ب - قاسم أمين (١٨٦٣ - ١٩٠٨)

أ - تاريخه :

ولد ببلدة طره في ضواحي القاهرة ، وانتقل مع أبيه « الضابط أمير ألي محمد بك أمين » الى الإسكندرية حيث تلقى دروسه الابتدائية ، ثم انتقل الى القاهرة فالتحق بالمدرسة الخديوية الثانوية ثم بمدرسة الحقوق ، وإذ كان من المتفوقين في دروسه ضُمَّ الى بعثة حكومية للتخصّص في فرنسا ، فأتمَّ دراسته الحقوقية في مونبليه ، وفي سنة ١٨٨٥ عاد الى مصر فعيّن وكيلاً للنيابة العامة في المحكمة المختلطة ثم مستشاراً بمحكمة الاستئناف . وإلى جانب عمله في القضاء توجه إلى معالجة قضايا مجتمعه ولا سيما قضية المرأة ، فكان من مشاهير رجال الإصلاح الاجتماعي في الشرق وكان له أثر بعيد في النهضة الاجتماعية الحديثة . وقد توفي بالقاهرة سنة ١٩٠٨ ، تاركاً وراءه من المؤلفات :



قاسم أمين .

- ١ - تحرير المرأة (من التمجيز والجهل والحجاب والظلم والحرم)
- ٢ - المرأة الجديدة (ردّ على منتقديه وإيضاح لبعض آرائه)
- ٣ - أسباب ونتائج وأخلاق ومواعظ .

٤ - خلاصة آرائه :

يرى قاسم أمين أن جهل المرأة وغيابها عن المجتمع ، واستكانتها للتعسف والهوان ، من أقطع العلل التي أضعفت التربية القومية والوعي الاجتماعي في البلاد ، وأن مقومات الحياة تقتضي الحفاظ على قوام الأسرة والبيت المُمثل في المرأة . وكان هم قاسم أمين أن يفرس في الشعب والمجتمع وعياً جديداً وشعوراً عميقاً بالذات والوجود ، وكان يهدف

من وراء تحرير المرأة الى تحرير المجتمع وإصلاحه ، وكان يرى في الحجاب والتستر المفروضين على المرأة حجبا للنور والتطور عن عقلها ونفسها وحياتها وهو يقول : « الشريعة الإسلامية لا تحوي نصا يوجب الحجاب على هذه الطريقة المعهودة ، وإنما هي عادة عرّضت عليهم من مخالطة بعض الأمم ، فاستحسنوها وأخذوا بها ، وبالغوا فيها وألبسوها لباس الدين ، كسائر العادات الضارة التي تمكنت في الناس باسم الدين والدين براء منها » .

قال أنيس المقدسي : « لم يكذب نبثق فجر القرن العشرين حتى دوى في مصر صوت هزّ العالم الإسلامي العربي من أقصاه الى أقصاه ، وهو صوت قاسم أمين يدعو أبناء وطنه وملته الى وجوب تعليم الفتاة ، وتخفيف الحجاب أو رفعه ، وتنظيم الزواج والطلاق ، ومنح المرأة حقوقها الاجتماعية وحرّيتها الطبيعية مستنداً في كل ذلك الى النصوص القرآنية والنبوية محاولاً تفسيرها بما يلائم روح العصر ... وقد تصدّى له المحافظون وعانى منهم ما يعانى كل مصلح ، وإلى ذلك أشار شاعر النيل بقوله :

أَقَاسِمُ إِنَّ الْقَوْمَ مَاتَتْ قُلُوبُهُمْ وَلَمْ يَفْقَهُوا فِي السِّفْرِ مَا أَنْتَ كَاتِبُهُ
إِلَى الْيَوْمِ لَمْ يُرْفَعْ حِجَابُ ضَلَالِهِمْ فَمَنْ ذَا تُنَادِيهِ وَمَنْ ذَا تُعَاتِبُهُ ؟ ! »



مصادر ومراجع

خير الدين الزركلي : الاعلام .

جرجي زيدان :

- تراجم مشاهير الشرق - مجموعة دار الجيل - بيروت .

- تاريخ آداب اللغة العربية - مجموعة دار الجيل - بيروت .

- قاسم أمين نصير المرأة المسلمة - الهلال ١٦ : ٥٠٦ .

الفيكونت فيليب دي طرازي : تاريخ الصحافة العربية - بيروت ١٩١٣ .

فؤاد البستاني : المعلم بطرس البستاني - الروائع ٢٢ - بيروت ١٩٢٩ .

أنطوان موصللي : المعلم بطرس البستاني - المكشوف ١٦١ .

الأب لويس شيخو : الآداب العربية في القرن التاسع عشر - بيروت ١٩١٠ .

المقتطف ٨ (١٨٨٣) ص ١ - ٧ .

أحمد لحاكي :

- قاسم أمين - سلسلة «أعلام الاسلام» - القاهرة ١٩٤٤ .

- قاسم أمين الوطني - الرسالة ٧ : ٢٤٧ .

فرج سليمان فؤاد : تاريخ حياة المرحوم قاسم أمين .

عبد العزيز البشري : قاسم أمين - السياسة الأسبوعية ١١٣ (١٩٢٨) : ١٥ .

توفيق حبيب : قاسم أمين والمرأة المصرية - الهلال ٣٦ : ٩٤٥ .

عبّاس محمود العقّاد : قاسم أمين - الرسالة ١١ : ٣٤١ .

محمد حسين هيكل : قاسم أمين - السياسة الأسبوعية ٥٨ (١٩٢٧) : ١٠ .

مارون النقّاش - أحمد أبو خليل القبّاني

أديب إسحق - نجيب الحداّد

أ - مارون النقّاش : وُلد في صيدا سنة ١٨١٧ ودرّس في بيروت ، وشغل بعض المناصب الحكوميّة ، وسافر الى إيطاليا في سبيل التجارة فعرف المسرح وأراد أن يدخله الى بلاده فأقام مسرحاً ووضع له عدّة تمثيلات ، وكان بذلك رائد المسرح العربي في الشرق . من مسرحياته « البخيل » و « الحسود السليط » . وهو فيها كلّها ذو نزعة أخلاقيّة وشديد الاهتمام لناحية الطرب . أما كتابته فهي مزيج من نثر وشعر وهي حافلة بالركاكة . وقد نجح النقّاش بعض النجاح في التنسيق الفني الداخلي وفي رسم الطباع وتصوير الأخلاق وإدارة الأحداث .

ب - أحمد أبو خليل القبّاني : وُلد في دمشق سنة ١٨٣٦ واشتهر بالموسيقى ، ثم أخذ يعالج المسرحيّة تأليفاً وتمثيلاً ، فحاربه الرجعيّة فانتقل الى مصر وقام بعمله في الاسكندريّة والقاهرة ونال إعجاب الجمهور ، وقد توفّي سنة ١٩٠٢ .

كان القبّاني يقتبس مواضيعه من حوادث التاريخ العربي ، ومن أساطير ألف ليلة وليلة . وكان يدخل في مسرحياته الرقص والغناء ، ولئن ضعف السياق والحبكة فيها فقد كانت خطوة إلى الأمام في طريق المسرح العربي .

ج - أديب إسحق : وُلد في دمشق سنة ١٨٥٦ ونشأ في بيروت ثم انتقل الى الاسكندرية يساعد سليم النقّاش في وضع المسرحيّات وتمثيلها ، ويعالج الصحافة ناهجاً طريق الإصلاح السياسي والاجتماعي ممّا كان سبب تشرّده . وقد توفّي ببلدان سنة ١٨٨٥ . من مؤلفاته « الدّور » . وهو يعتمد في كتابته أسلوب التمجيع والتدبيج والزخرفة .

د - الشيخ نجيب الحداّد : وُلد في بيروت سنة ١٨٦٧ ثم انتقل الى مصر ، ثم عاد الى بيروت دارساً . أنشأ مع شقيقه أمين في مصر جريدة « لسان العرب » ثم جريدة « السلام » ، وتوفّي سنة ١٨٩٩ تاركاً وراءه عدداً كبيراً من الروايات والمسرحيّات الموضوعيّة والمترجمة . وهو من أبرز من عالج فن المقالة وأدب القصّة والمسرحيّة .

أ - مارون النقّاش (١٨١٧ — ١٨٥٥)

أ - تاريخه :

هو أول من عالج الفن المسرحي في الأدب العربي . وقد وُلد في صيدا (لبنان) سنة ١٨١٧ ، ثم انتقل مع أبيه الى بيروت سنة ١٨٢٥ ، وأكبّ على طلب العلم وكانت له منه ثقافة تفوق بها على الأقران ، كما كان له اطلاع واسع على التجارة وقوانينها ، وقد أتقن من اللغات التركية والإيطالية والفرنسية كما أتقن الموسيقى .

وشغل مارون النقّاش بعض المناصب الحكومية فعُيّن رئيس كتّاب جمرك بيروت ، كما عُيّن عضواً في مجلس التجارة . وكان له في نفسه طموح شديد الى التجارة فترك المناصب وانصرف إليها ، وراح في سبيلها يضرب في البلاد ، فسافر الى حلب ودمشق والإسكندرية والقاهرة ، وانتهى به التجوال الى إيطاليا . وقد دغدغت البلاد الأوروبية استعداداً كان فيه ، وميلاً شديداً الى الأدب والفن ، إذ عرف هنالك المسرح ، وشهد بعض المسرحيات والأوبرات . قال سليم النقّاش : «المرحوم عمّي مارون النقّاش حين ساح في أوربا ودوّخ أقطارها رأى حال الروايات عندهم وما تجني منها بلادهم من الفائدة والانتفاع ، فحملته الغيرة الوطنية ، والحمية السورية ، على إدخاله الى بلاده ، فعاد وألّف روايات لا ينتظر مثلها من مؤلف في فنّ لم يكن يعرفه غيره من أبناء وطنه ، على أنه لا يُستغرب من مثله . ولما رأى عدم ميل أبناء وطنه الى هذا الفنّ المفيد نظراً لعدم معرفتهم بمنافعه زاده فكاهة ، فجعل في الرواية الواحدة شعراً ونثراً وأنغاماً ، عالماً أنّ الشعر يروق للخاصة ، والنثر تفهمه العامة ، والأنغام تُطرب ... وأنه أجهّد نفسه في جعل رواياته أدبية محضة ، قاصداً بذلك تهذيب أبناء وطنه ، فأتى بالمطلوب من الروايات لأنها إنما تفيد إذا كانت أدبية تُرغّب في الفضائل وتنهى عن الرذائل^١ .

وفي سنة ١٨٤٥ سافر مارون النقّاش الى طرسوس للتجارة وقد استغرقت رحلته ثمانية أشهر عاد في أثرها الى بلدته . وفي سنة ١٨٥٥ أصيب بحمى شديدة أودت بحياته .